

Princeton University Library



32101 06015551

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.



خواطر

تأليف

محمد بن محمد ابن الحاج السلمي المرداسي

قاضي شراكة وما اضيف اليها

حفظه الله

الجزء الاول

1367 — 1948

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

مطبعة النهضة

بغداد

لصاحبها

محمد سالم بن علي بن ابي عيسى



مجلد اول از مجموعه الادب العربی
از سید محمد بن محمد بن علی بن ابی
میردست

خواب

تالیف

محمد بن محمد بن الحاج السالمی المرداسی

قاضی شراة وما اضيف اليها

حفظه الله

الجزء الاول

مطبعة النهضة

بغداد

اصحابها

محمد سالم بن علي بن أبي جعفر

(RECAP)
BP161
M572
1948

فهرست الكتاب

مقدمة بقلم المؤلف

قيمة الثقافة في نفس المثقف

النجاح والفشل

التجديد

التجديد في نظر علماء الدين

الجهاد وقيمه

اسباب الرحلة عند العرب

العزيمة المحمدية

صلة الانسان بالجمال

فكرة داروين عن الاصل البشري

التخصص وبعض مظاهره في الثقافة العربية

الادب العربي في رعاية امرائه

اثر العقل في الجسم

العبقرية والنبوغ واثار الوراثة فيهما

طبيعة الشرف في الحياة المادية والادبية





بسم الله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

مقدمة

— بقلم المؤلف —

انه لرأى جديد، ونظريات علمية، وانه لتطور رائع
في عالم الفن والادب، وانها لسريرة نفسى اقدمها لقاري العزيز
في صراحة ووضوح .

فان قدر لذوق القارئ ومزاجه ان يرتفعما لغاية ذكاء الكاتب
وتمييزه، فسيخلق معنى ساعة في اجواء للشل العليا ، والغايات
الشريفة، وسيفرغ من قراءة هذه المجموعة وهو يقول ما افيده
لا ما ابرعه — وامهره .

ان العلم والادب لا يختلفان في غايتهم التي هي الكشف
عن حقائق هذا الكون، ودراسة نفسية الانسان وغايته في هذه
الحياة وامله فيها ، مع ما يلابسه في ذلك من نظم اجتماعية،
وفلسفية ودينية واخلاقية .

ولذلك نرى جل ادباء العرب — في القرن الاول والثاني —
مجتهدين في الادب والعلم معا، يبحثون الادب، ويتقيدون
باصول الدين، ويدرسون العلم ويستلهمون الادب .

فكانوا يبتكرون ويستنبطون ، وكانوا يعبرون عن احساسهم
النفسي وذوقهم العقلي ، وكانت الامة مطبوعة بطابع ادبائها ،
متلون ذوقها بلون ثقافتهم ، مسبوغة نزعاتها بنزعات أفكارهم
فمضى القرن الاول والثانى وبعض الثالث ، واذا الادباء — قادة
الفكر وزعماء النزعات — يحثرون ، فياكل جديد ادب امتهم
قديمه ، ويقلدون ، فتقصر حركة اعمالهم عن الانتاج المطلوب ،
ويطلقون شؤون الحياة فتتفرج الهوة بينهم وبين غرض النوع
الانساني من الحياة

والآن وقد تداركتنا النهضة الحادثة ، وراينا الادب ينقد
الانسان ، ويرسم له المثل العليا ، ويستكنه فيه اسرار الكون
وخفاياه ، وبدأ الادب يتعدا مما حوله فيخط للامة طرق مجدها
ويدها على نفسها ، فيذكرها بماضى عظمتها ويبرز لها في ابداع
صورة باسم مستقبلها .

رايت ان اتقدم لقراء العربية بهاذه المجموعة الادبية او
الخواطر الفكرية .

متجنباً فيها العناية بالعبارة المونقة او الجملة المنسقة ،
والاستعارة الطريفة والتشبيه الرائع ، وعاملاً على ان لا تزيد
فيها الالفاظ عن المعانى المقصودة ، وان تكون غايتها الافادة
لا المهارة في تنسيق الكلمات والاجادة .

فعسى الله ان يجعله فاتحة خير لمهد حميد ومستقبل زاهر
ويخلد مجد العروبة في طالع سعدھا الباسم وسر عظمتھا الباقية
مولانا امير المؤمنين ، ويقر عينيه باشباه الامراء الكرام
والسلام



قيمة الثقافة في نفس المثقف

ان لمختلف الشهادات التي ينالها المثقف ، ويرصع جبينه بها كده المتواصل ، درجات امتياز ورتب تفاوت بحسب قيمة الشهادة وبعد ما بين درجاتها ومكانة اعتبارها ، والناس تختلف انظارها للمثقفين بحسب ذلك التفاوت وبعد ما بين تلك الدرجات ، وقد يكون حامل الشهادة الثانوية مثلاً اغزر فهماً واذق معرفة من حامل الشهادة النهائية ، وقد يكون هناك اختلاف بين حاملي الشهادة من نوع واحد ، ولكن الناس جبلوا على تسوية ما بين الطبقة الواحدة ، وعدم التفاتهم الى اختلاف ما بين افرادها ، ولهم العذر في ذلك لانه لم يخترع — والى الان — مقياس دقيق يوزن به الفكر ، وتعرف بواسطته درجات الاستعداد فيه معرفة صحيحة

تلك نظرة الناس للمثقف ، وتلك مكانة الثقافة — من وجه — في الناحيتين الاجتماعية والمادية ولها قيمة اخرى تصل بنفس المثقف ، وترتكز فيه شنشنة وطبيعة ، تلك هي نظره للعالم من وراء ثقافته ، ومشاهدته لما يحسن فيه ويرى من خلال نفسه وسمو معرفته

فقد يتفق الناس في حكمهم على الاحجام كبراً وصغراً ، وفي حكمهم على الالوان حمرة وصفرة وغيرها وعلى الابعاد قرباً وبعداً ، وكل ذلك باعتبار نظرهم الحسي ، اما نظر النفس وحكم القلب ، فهو

مختلف كل الاختلاف عن ذلك كله ، ومن المستحيل ان يتحد شعور
الناس فيه ، ويتساوى مبلغ تقديرهم لدرجته ، اذ هناك الفيلسوف ،
وهناك النبي ، وهناك الحكيم وهناك الاحق

على ان للشئ الواحد معان متعددة ، وحيثيات مختلفة ، وكل
من المعاني والحيثيات متسلسل في الرق ، مختلف في الدرجات والقيم ،
يتفاوت ادراك الناس له على حسب استعدادهم وعلى قدر ما لهم من
السمو الفكري والعقلية الناضجة

ف نظرة اديب فنان وشاعر عبقرى ، يلقيها على روض قد تفتقت
افنانه ، وتمايلت على رقعة النسيم رياحينه واغصانه ، ليست هى نظرة
الرجل العادى ، متبلد العقل سقيم الفكر فذاك ينظر اليه فيقرء فيه من
معانى الحسن وآيات الجمال ما يمتزج بنفسه ، فيسيل قطعاً سحرية
بديعة من قلعه ، وذاك ينظر اليه ويراه ومن وراء عقله البليد الجامد
فيراه مبهما غامضاً لا يسفر عن اى معنى جميل او يوضح وجهة ما

ومنه ما حكى عن عيسى عليه السلام انه مر واصحابه بجيفة منتنة
فقال رفقاؤه ما اخبت رايحتنا وقال هو ما احسن بياض اسنانها
وها كذا تختلف نظرة النفس فى الانسان لدى كل شئ يقع عليه
البصر ، او يتوجه اليه النظر سواء كان ارضياً او سماوياً

وبحسب ما وهب الله النفس من نور الحكمة ، واسبغ عليها من
قداسة المعرفة وجلال العلم ، تكون قيمة اعتبارها لما تشاهد فى هذا

الكون وتراه من بديع الايات ، وصنوف باهر المعجزات ، ويكون كذلك بحسبه قدر انفعالها ، ومبلغ تاثيرها ، وارتسام ذلك في صميمها وليس النضوج الفكري ، وغاية الرقي العقلي ، اللذان هما معنى الخلود وسر العظمة ، غير مظهرين من مظاهر هذا الاختلاف في الشعور بالغايات البعيدة ، والتقدير لما انطوت عليه النفس البشرية من سر حكيم

فالمراة - مثلا - اذا نظر اليها العادي على انها بهية الجمال ، جذابة المحاسن والافصاف ذلك لتناسب اجزائها ، ورقة اطرافها ، فغيب عنه الحسن ، وكان كما قال المتنبي في الخيل

وما الخيل الا كالصديق قليلة * وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها * واعضاءها فالحسن عنك مغيب
نعم اذا نظر اليها العادي كذلك . كان نظر المثقف ابعد منه مدى
واسرع خطى اذ هو يرى حسناتها لا في ذلك فقط ، بل فيما ينظره
في وجهها من بدائع الصنع الحكيم ، والدلالة البالغة على قدرة الله التي
سوت الانسان فخلقته في احسن تقويم ، وفيما شعر به في نفسه
- وهو بجانبها - من رقة تهديء من ثوران عاطفته ، وتجعله متزنا
في تفكيره ، عادلا في خططه التي يرسمها لنفسه ، والتي يمكن ان
يواجه الناس بها في الحياة

وها كذا فنظر الانسان الى الحياة ليس كقوالب جامدة ، كل

منها مستقل بنفسه محدودا بحدوده ، بل كسائل لطيف ، مهما اتصلت
الحرارة بجزء منه عمت جميع اجزائه ، ومهما وقعت نقطة فيه من اي
لون شمع ذلك اللون في سائر اجزائه ايضا ، بل النظريات الفكرية هي
اذق من ذلك السائل واكثر منه قابلية للامتزاج ، اذ امتزاج السائل
بما وقع فيه قاصر عليه ، وذلك بخلاف النظر الراقى اذا وقع على شيء ،
فانه يؤثر رقيقا في سائر النظريات ، ضرورة كون نظر الانسان الى
الحياة ، متأثر بنظره الى نفسه ، ونظره الى نفسه متأثر بنظره الى
الحياة ، وهذا ما يجعل الثقافة في ناحية من نواحي العلم تشع ضوءاً على
سائر الوان المعرفة ، قال بعضهم ان رقى الامة في الموسيقى وتذوقها
للصوت الجميل ، والغناء الجميل ، يجعلها تتعشق المفاخر وتابى الهوان
الواقع ان الفكرة الجديدة تدخل الفكر فتقلبه راسا على
عقب وتتجه به اتجاها جديداً ، وتلك سنة الله وان تجد لسنة الله تبديلا



النجاح والفشل

من بين ما نشاهد في هذا المجتمع الانساني ، وتراه اعيننا صباح مساء ، طائفة من الناس حالها السعد ورافقها النجاح ، وواتاها الحظ في كل ميادين الحياة ، فالمعالي قد انسقت لها طوعاً او كرهاً والدهر قد احلها في الذروة ، فكانه استثنائها من صروفه ، وحذفها من قائمة ما كتب الله على البشر من بؤس ، وقدر عليه من شقاء

فالنجاح عند هاؤلاء مطرد ، والفوز متوالى مستمر ، والمعالي في قبضة اليدين ، فهم في الحياة المدرسية دائماً في طليعة الصفوف ، وهم ايضاً في مقدمة الناجحين ، وهم بعد التحصيل ونيل الشهادة من اصحاب الوظائف العالية ، والمراتب السامية القعساء

وهناك وعلى العكس طائفة اخرى رافقها الفشل ، وعاندها الدهر بصروفه ، فلا تخطوا خطوة الا وترجع من حينها عوداً على بدء ولا تنتهي من رزية الا وتستأنف اخرى هي اشد منها اثرأ على النفس وارسم لديها وقعاً

ويرافقها ذلك - ونسال الله السلامة - حتى في ادوار طفولتها ، ومرتع صباها ، فهي في المدرسة في اذنان الفرق واخریات الجماعات ، وهي في الحياة الاجتماعية ذات نحس مستمر ، هيهات ان تجدد عنه مفرأ او ترى منه الى اي سبيل مهرباً

وقد توجد طائفة اخرى استوى نحسها وسعدها ، وجاملها الدهر
بقدر عناده لها ، فكانت كما قال الشاعر : فطوراً سرور وطوراً حزن
او كما قال الآخر : فيوماً نساء ويوماً نسر او على وتيرة ما درج عليه
ابن زيدون في سينيته المشهورة

ما على ظنى باس * يجرح الدهر وياس

فما السبب ياتري في هذا الاختلاف ، ولاى شىء يرجع تعليل هذه
الظاهرة الاجتماعية في الانسان
الحق انها ترجع لاسباب تافهة ، وحوادث صغيرة وصغيرة جداً ، منها
طبيعة التفاؤل والتشاؤم في الانسان

فما من فرد نراه من افراد الطائفة المحظوظة ، الا ونراه وله ثقة في
نفسه ، وامل قوي باسم بحسن مستقبله ، فهو اذا تقدم للامتحان
— مثلاً — يتقدم اليه وكله يقين بنجاحه فيه ، وتفوقه عالياً على سائر
اقرانه وجميع مشاركيه ، فليس هناك في نظره من يساويه ، بله من
يتفوق عليه او يدانيه فهو مطمئن للغاية التى يعمل لاجلها ، مستبشر
بجمال طالعها وحسن سعدها ، فاين اذ ذاك صدمة الموضوع من نفسه
الجبارة ، واين تهويل الرفاق من العزلة التى ملأت قلبه ، والعظمة التى
شغلت فكره العالى وعقله المنيف

اذا مضى الحمراء كانت ارومتى * وقام بنصرى خازم وابن خازم
عطست بانف شامخ وتناولت * يدائى الشريا قاعداً غير قائم

فهو اذا اومع هذا في الغالب محظوظ وهو معه ناجح وظافر ،
وكذلك العمل في كل ادوار الحياة ، واطوار العيش فيها ، مع تقلبات
الايام واسترسال الدهر

حكى ابو عثمان عمر ابن بحر الجاحظ في كتابه المحاسن والاضداد
انه كان باليمامة رجل من بني حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان لسنا
فاتكاً شجاعاً قد اثر على اهل هجر وناحياتها فبلغ ذلك الحجاج ابن
يوسف فكتب الى عامل اليمامة يوبخه على تلاعب جحدر به ويأمره
بشدة التحري في طلبه ، فبعث العامل الى فتية من بني يربوع بن
حنظلة فجعل لهم جملاً عظيماً ان هم قتلوا جحدرًا او اتوا به اسيراً
ووعدهم ان يوجههم للحجاج ويسني جوائزهم فخرج الفتية في طلبه حتى
اذا كانوا قريباً منه بعثوا اليه رجلاً منهم يريه انهم يريدون الانقطاع
اليه والتحرر به ، وفعلاً فقد وثق بهم واطمان بوعدهم فبيناهم معه على
ذلك اذا اخذوه غرة فشدوا وثاقه وقدموا به على العامل فبعثهم به الى
الحجاج وكتب يثنى على الفتية فلما قدموا عليه قال له انت جحدر قال
نعم قال ما حملك على ما بلغني عنك قال جراءة الجنان والايمان بالنصر
والظفر ، قال ويلك ما الذي بلغ من امرك حتى يتجرء جنانك وتومن
بالنصر والظفر قال تلك غريزة تضمن العز وفطرة لا بد معها من
النصر ولو بلاني الامير لسر ، قال الحجاج انا قاذفوك في قبة فيها اسد
فان قتلك كما نأمو ننتك والا ابقينا عليك ووصلناك قال جحدر اعطيت

اصالحك الله الامنية واعظمت المنة واذ ذاك امر به الحجاج فوثق
بالحديد والقى في السجن وكتب الى عامله بكسركر يامره ان يصيد له
اسداً صاريًا فلم يلبث العامل ان بعث له باسد ضارية فجعل الحجاج
واحدًا في تابوت يجر على عجلة ووضع في اسطبل وامر به فاجيع ثلاثًا
ثم بعث الى جحدر فاخرج واطلق من اغلاله ثم اعطى سيفًا وادخل
على الاسد واذ ذاك انشأ يقول

ليث وليث في مكان ضنك * كلاهما ذو انف ومحك
وصولة في بطشة وفتك * ان يكشف الله قناع الشك
الذيب يعوى والغراب يبكى

ثم تقدم اليه حتى كان منه على قدر رمح ، فتمطى الاسد وزأر
ثم حمل عليه فتلقاه جحدر وقد تلطخ بدمه من شدة حملة الاسد عليه
فكبر الناس ، وقال له الحجاج يا جحدر ان احببت الحقنك ببلدك وان
احببت الاقامة عندنا اسنيننا فريضتك قال اختار صحبة الامير وانشأ يقول

يا حمل انك لو رايت بسالتي * في يوم هيج مردف وعجاج
وتقدمي لليت ارسف حوله * حتى اكايده على الاحراج
ففلقت هامته نخر كانه * اطم تقوض ماييل الابراج
فلئن رميتني الى المنية همتي * انى خيرك بعد ذلك راج
فانظر الى قول جحدر في جواب الحجاج جرة الجنان والايمان بالنصر
مع قوله في القصيدة التي يفخر بها : فلئن رميتني الى المنية همتي اليس

هو يرى في العزيمة الصادقة ضمناً للنصر وكفيلاً بالنجاح والظفر
وعاملاً قوياً في تكوين الشخصية الجبارة والعبقرية الناضجة

وكم في الادب العربي لو استقصينا البحث من مثل هذه النزعات
التي توضح او تبرهن على كثير من هذه النظريات العلمية والاسس
العرفانية تلك التي يعتقدها كثير من علماء النفس واصحاب البحث في
العوامل التي تظافرت جهودها علي تنشئة الانسان وتقدمه وتدرجه
عالياً في مهيع الكمال المنشود والغاية البعيدة هذه النزعات التي تجري
عفواً علي السنة الادباء وينطق بها فحول الكاتبين والشعراء حيث
تهديهم اليها الفطرة السليمة والقريحة المتوقدة، ولو انتبه اليها
الباحث المذقق لوجدها قاعدة من قواعد العلم ودعامة من دعائمه
القوية شاء لها القدر ان تكون درة خارج صدفها، وجوهرة
نفيسة في غير مضانها

وكذلك فالوهم يمثل في النفس حقيقة واقعة يزودها الخيال بكل
ما ينقصها من الزوائد والحواسي حتى تتجسم وتكمل خلقتها فاذا الوهم
حقيقة واقعة وشيء محسوس لا مجال لاحد عن الانقياد اليه
ولا مناص من الادعان لما يوجبوه يفرضه

وقد ضربوا على ذلك مثلاً هو في غاية البساطة ولا كنه يوضح
ما اشرنا اليه سابقاً ثم وضوح واجلاه وذلك كما اذا وضع احدنا
على بساط الارض قائمة ممتدة من خشب ثم اراد المرور عليها فانه

يمكنه ذلك وبكل سهولة دون ان يتعثر او يرتبك ، وهو على العكس
فيما اذا وضع هذه القائمة نفسها فوق هوة عميقة كشاهق جبل مثلا
ثم اراد المرور عليها فانه ولا بد متخيل للسقوط خائف من الوقوع
في قعر تلك الهوة السحيقة حيث تتحرك منه العضلات وتتكمش
الاعصاب ويجمد الدم وفي الحين ينتهي به الامر بما يكون
سقوطا حقيقيا

وكذلك الحال في جمل الاعمال وجميع ما ياتيه الانسان
في هذه الحياة فهو مهما توهم الفشل وخاف على نفسه السقوط واخذ
يتردد في النتيجة الحسنة والغاية المرجوة الا وهو خائب ومهما
تفائل وانبسط وانشرح قلبه واقبل على العمل واثقا بالنجاح فيه وكان
النجاح بالنسبة اليه في حدود الممكنات الا وهو ظافر وناجح والله
يهدي من يشاء الى صراط مستقيم



التجريد

لا بد لكل امة من الامم — مهما بلغ مستوى رقيها ومهما سجل لها التاريخ من آيات فخر واعجاب ان تمر عليها في يوم من الايام ادوار الخطا واطوار بؤس وشقاء « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا »

فبينما تبصر الامة وقد استكملت وسائل تقدمها وبلغت الغاية في ميدان التطور والنشوء لا يربعك منها الا وقد غرقت في بحر لجي من الترف واللذة واسلمت نفسها لتيار الحضارة الجارف وغازى الترف والنعيم — واذ ذاك — فما هي الا عشية او ضحى حتى تسفر النتيجة ويرفع الستار عن تقلص ظلها والرجوع بها خطوات عن مركزها الدولي وموقفها العالمي العظيم

وتلك هي النكبة التي حلت بابائنا عرب الاندلس رحمهم الله بعد أن ازدهر العمران بربوعهم واشرقت عليهم شمس الحضارة العليا وغمرتهم اشعة المدنية الحقبة فكانوا سادة العالم والمالكيين لازمة الامور فيه وكانوا فخر التاريخ البشري والمحصلين فيه علي أمته وشائج العظمة وأخلص آيات الاعجاب والتقديس ولا كنهم ما استكانوا — أو كادوا — لغايتهم تلك وطمانوا

اليها حتى سحرتهم نظرة النعيم ودعاهم داعي الهوى والترف ففتنوا
في طاعته مغرقين وانقادوا اليه فرحين مستبشرين حيث أبدلوا
بالمساجد اندية وبمجلقات العلم ودروسه مجامع الخنى وحانات الفسق
والفجور فما لبثوا غير قليل حتى استاصلهم العدو ودمر بلادهم وما
كانوا يصنعون واصبحت معاملهم مندثرة ويوتهم قاعاً صفصفاً لا
ترى فيها طللاً ولا تانس اثرًا

وهذه ظاهرة من ظواهر الكون خضعت لها الامم منذ فجر
التاريخ البشرى وجرت مع الحياة سنة لازمة وطبيعة من طبائع
الكون بيد ان غايتها تختلف باختلاف مبلغ ذلك الانحطاط الذي
انتهت اليه الامم في الذي فقدت من حياتها الاولى ونضوجها
السياسى المتقدم

اذ مرة يأتى الانحطاط على ادوار سياستها واطوار عوائدها
ومظاهر قوميتها واخرى ترجع الى الورا ولا كن في بعض مميزاتها
فقط وقليل من نضوجها السياسى الاول

وهذه الاخيرة هي التي يمكن ان تاتر فيها عوامل التجديد
وقوانين الاصلاح الوضعية وغاير الوضعية اذ هي امة وان فقدت
— كما قلنا — بعض مميزاتها فهي ذات شعور كامن واحساس عميق
بسالف سيادتها وبأبد مجدها قد يدتاح لها اعلاؤه متى هيا الله لها

مصححاً عظيماً ومجدداً قوياً ومتي كانت الظروف صالحة والسعد موافقاً
ثم ان التجديد سنة من سنن الكون في هذه للحياة سواء في
النبات والانسان او غيرها كالجملاد . فالانسان تفنى ذارته الروحية
الحيوية عن مدة معلومة ويتجدد تكوينها بخلق ذرات اخري قابلة
لنمو صالحة للحياة يمكنها مقاومة الفناء الى وقت تعجز فيه كسابقتها
فتضمحل وها كذا الى الموت وسابقة الخلود

وكذلك النبات فهو جسم ذو حياة كالحياة الحيوية يطراً عليه
التجديد فتسرى فيه روح الحياة فيهتز ويربو حاملاً من الفواكه والثمار
ما تغلو به قيمته ويعجب الناظرين وما يكون اية حقة للعالمين
والمتموسمين ، ذلك بما تعمل فيه يد الباحث المنقب من تشذيب
لاغصانه وقلع ما يئس اوفسد من نباته مع ما يتعهده به محراث الحارث
الذي يقلب الارض ظهراً على عقب ويهشم تربتها الزكية كي يتسنى
للنبات ان يزهر بها ويزهر ويعرح في لونها الطبيعي الساحر الجذاب
اذاعلمنا هذا وذاك وكان لا فرق بين المعقول والمحسوس علمنا
وان لا بد لاخلقنا وعاداتنا حيث شاخت واشرفت على الاضمحلال
من التجديد الحى والتطور الرائق المعجب ، علمنا وان لا بد لها من
تغيير لما هي عليه من الجمود المريع والاستسلام الاعمى والركون الى
كل شيء يوافق النفس والهوى ولو باين المبادي الدينية والعقائد
التشريعية الاولى الامر الذي قضى علينا بالتاخر في كل شيء يروق

تقدمنا فيه واخذ بيدنا الى حيث المفسد الدينية والاجتماعية الى
حيث الاخلاق الفاسدة المنحطة دينياً وادبياً الى حيث التنافر التام
والشحناء والبغضاء والبذاء في القول والغلظة والفظاظة والذهاب
بالنفس الامارة وعند ما يجب خفض الجناح وليونة الجانب

حيى الله ذلك العصر الذهبي وبياه عصر ابائنا الاولين وسلفنا
الصالح رضى الله عنهم يوم كانوا وقد نزع ما في صدورهم من غل
وقلوبهم من احقاد ومحي منهم داء الكبر ومرض العجرفة فكانوا
اخوانا الفت بينهم الروح الدينية وربطتهم الرابطة الاسلامية الكبرى
فاستنارت بذلك قلوبهم وناطحت هممة همهم قبة السماء واديم
الرقعة الزرقاء حيث حلقوا بها في تلك الاجواء الفسيحة واتصلوا من
عالمهم الارضى بالعالم العلوى واخذت نفوسهم تتطهر من ادران
النزعات المغرضة والغواية الحمقاء وتنشرح لقبول السعادة العليا التى
هى اتصال الانسان بالملكوت الاعلا واعراضه عن باطل الحياة
وزخرفها الاهوج فكانوا يتعاطون المهن الشريفة على اختلاف
انواعها من تجارة وصناعة وحرفة ثم لا يضع ذلك من نفوسهم اولا
ولا يصرفهم عن مجهوداتهم الدينية ثانياً

حدث ابو عمر الجاحظ في كتابه المحاسن والاضداد ان ابا بكر
وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا بزازين وفي البخاري ان سعد
بن ابى وقاص كان يغدق النخل وان اخاه كان نجاراً وذكر ابو قتينة

ان الوليد ابن المغيرة كان حداداً . وذكر الجاحظ ايضاً ان عثمان ابن
طلحة صاحب مفتاح البيت كان خياطاً وزيادة فقد ذكروا ان مالك
ابن دينار كان وراقاً وان ابا حنيفة كان خزازاً وان العاص ابن وائل كان
يعالج النحل والابل وان ابا سفيان بن حرب كان زياتاً

وكذلك كان اباؤنا في الدين رضوان الله عليهم يحترفون
ويتجرون ويتعلمون ويعلمون لا يذهب واحد منهم في تقديره لنفسه
الى البعد بها عما لا يمس الكرامة الدينية ولا يتنافى مع الاخلاق
الفاضلة والشمم العالى المنيف

فما كانت الاخلاق الرفيعة عندهم هي شراسة الطبع وفساد الطوية
وانما كانوا والحكم كما يقولون للغالب اخواناً تربطهم رابطة واحدة
ويجمعهم دين واحد ومبدء لا يختلف قد خلت قلوبهم من المفاسد
والاعيار وطهرت ضمائرهم الى حد ان كانوا كالبنيان يشد بعضهم بعضاً
قد تجسمت فيهم العقائد الدينية وسيطرت على افكارهم الوقادة روح
القرءان وقدسية الاحاديث النبوية فاخذت منهم كل ماخذ وعملت
في نظمهم كلها بغاية ما لها من القوة وما اعطيت من جادية وسحر
حيث نورت منهم الاحلام وهذبت المشاعر وايقظت في نفوسهم
الغيرة الدينية والحماس العربي ومكارم الاخلاق وعالى الشمم وطافح
المجد والشرف اولئك الاباء فإى شئ ياتري ورثه عنهم الابناء اليس
كل ما وصفنا من حالهم نحن منه ولا شك على العكس وبالنقيض

فمن اخلاق منحطة ونفوس لا تاتي الضيم ولا تضجر من الاهانة الى وهن في العقيدة الدينية وتسيطر اراء الملحددين والمارقين على كثير من افكار الناس ومعتقداتهم الى ما تضيق عنه العبارات ولا تتسع له الصفحات

وبعد فحاجتنا الى التجديد قوية وقوية جداً وكل شيء يحيط بنا نحن مفتقرون فيه ولا مزية الى القلب والابدال والاصلاح والتغيير ولاغربة في ذلك اذ كل شيء في الانسان نحن مومنون بتطوره وخصوصاً نفسيته الأخلاقية فقد ذكر أرسطوطاليس في كتابه الأخلاق والمقولات أن الانسان يكون شريراً فينتقل تدريجياً بالتدريب وتكرار المواعظ والأخذ بالسياسة إلى الخير قال والانسان مطبوع على الفضيلة وشرف النفس وكمال الأخلاق وليس كل ما فيه من هوج إلا أثر للتربية ، نشأ عنها وتكون من فسادها وعلى نظرية أرسطوطاليس هذه جل فلاسفة العصر ومفكره بل قد بنى عليها الايديالستيون مذهبهم وجعلوا علم الأخلاق مما هو وراء الطبيعة لا يعرف إلا بوحي إلهي والهام من السماء وظل مذهبهم هذا سائداً في الأوساط الأوربية الى ما بعد ظهور العلامة المستشرق ستوارت ميل الأنجليزى ذلك الذى أحيى مذهب الأهوتيين والحواسيين السانسواليست القائلين بان الأخلاق لا تتغير ولا يطرؤ عليها التجديد والاصلاح بل هى كما هى عالية أو سافلة ويوجد الآن

مذهب ثالث يعرف بعلم الاخلاق المستقل عليه جل المظماء
والمفكرين لهاذا العصر . وخلصته ان الاخلاق هي احترام كرامة
الانسان اى لا مركز لها ترتكز عليه لافكرة خوف عقاب كما يقول
الاهوتيون ومعهم الفيلسوف « كانت » واشياعه ولا علي الندم من
فعل القبيح كما يقول ستوارت واتباعه

ونظرنا هو ما اسلفناه من ان الانسان مطبوع علي الخير ولاكن
قد يزيغ قلبه فياتى الشر ويرتكب القبيح ثم لا يلبث بعد معالجة نفسه
المريضة وتقويم نظره المعوج ان يرجع الى ما جبل عليه من الخير
وطبع في نفسه من حب للفضيلة والجمال وسمو الأخلاق وشريف
الخصال

وليس معنى ذلك ومغراه الا التجديد . فالى التجديد وقدس الله

ارواح المجدين



التجديد في نظر علماء الدين (1)

وجود التجديد في راس كل مائة سنة
المائة مبدءها من البعثة او
مجدد المائة الواحد قد يتعدد
لا يشترط في المجدد ان يكون شريفاً
لا يشترط في المجدد ان يكون على مذهب الشافعي
لا يشترط فيه ان يكون مجتهداً
حيث ايقنا سابقاً بحاجتنا الى التجديد وعلما شدة توقفنا عليه
وكان التجديد الذي ننشده لامتنا والمعنى الذي نقصده بهاذه الكلمة
هو التجديد الديني والمعني الذي وضعه له الشرع
كنا مضطرين لاستقصاء البحث في النقط التي اسلفنا ذكرها لناخذ
التجديد بمدلوله الشرعي اولا ولنكون على بينة من اتجاهات افكار
علماء الدين ورجال فلاسفة التشريع الإسلامي في هذا الموضوع ثانياً
اخرج ابو داود في الملاحم والحاكم والبيهقي والطبراني في
الاوسط عن ابي هريرة رضى الله عنه رفعه ان الله يبعث لهاذه الامة
علي رأس كل مائة سنة من يحدد لها أمر دينها واتفق الحفاظ على

(1) بحث استفدته عن سيدى الوالد قدس الله روحه

صحته وقد حكى اتفاقهم هذا البيهقي في المدخل وابو الفضل العراقي
والحافظ ابن حجر

ثم انهم اختلفوا في مبدء المائة هل هو البعثة او الهجرة او الوفاة
وبعد ما عرض خلافهم هذا النحاس في كتابه النسخ والمنسوخ
رجح انه من البعثة لا كن ما احتج به من قول سفيان ابن عيينة :
بلغني انه يخرج في كل مائة سنة بعد موت رسول الله رجل من
العلماء يقوى الله عز وجل به الدين لا ينم . وقد حكاه منتقداً له التاج
السبكي في اول طبقاته وذكره ايضاً مزيفاً له ابو الفيض محمد بن
عبد الكبير الكتاني في شرحه للمرشد وكل منها رجح ما اسلفناه
عن النحاس من ان مبدء المائة من البعثة

ثم ومقتضى الحديث حيث عبر عن تعدد المجدد وان كان
ابن حجر في كتابه مناقب الشافعي رضي الله عنه قال ان الحديث
ورد في بعض روايته بلفظ ان الله يبعث لهاذه الامة على راس كل مائة
سنة رجل يحدد لها امر دينها وكلمة رجل صريحة في نفى التعدد
والروايات يفسر بعضها بعضاً ولا كن قد بحث في هذه الرواية الحافظ
ابن كثير في كتابه البداية والنهاية وتم كلامه اخيراً
على القول بتعدد المجددين لكل مائة وتبعه على ذلك السيوطي في
كتاب « المجددون » ومن الغريب ان ابن حجر في فتح الباري بعد
ان ذكر كلام النووي في حديث لا تزال طائفة من امتي ظاهرة

على الحق من انه يجوز ان تكون طائفة متعددة من انواع المؤمنين
قال ما نصه وهو متجه فان اجتماع الصفات المحتاج الى تجديدها
لا تنحصر في نوع من الخير ولا يلزم ان خصال الخير كلها في شخص
واحد الى ان قال اخيراً فعلى كل من اتصف بشيء من ذلك
على راس المائة هو المراد سواء تعدد ام لا هـ ولعله رحمه الله سهى
عما في كتابه الاول او تغير نظره في ذلك وعليه فهو متفق مع
ما ذكرناه عن ابن كثير والسيوطي ومع ما قاله الحافظ العراقي
ايضاً فان هذا لما نقل عن بعضهم ان ابا اسحاق الشيرازي واما
طاهر السلفي من مجدي القرن الرابع قال ولا مانع من الجمع وتبعه
على ذلك الذهبي فانه جعل من مجدي القرن الثالث ابن سريح
والاشعري والنسائي وذكر في كتابه مجامع الاصول ان من مجدي
القرن الاول عمر ابن عبد العزيز ومحمد الباقر والقاسم ابن محمد وسالم
ابن عبدالله والحسن وابن سيرين وابن كثير المقرئ والزهري ومن
مجدي الثاني المامون والشافعي واللؤلؤي من الحنفية واشهب من
المالكية وعلى ابن موسى الرضي من الامامية والخضر من القراء
وابن معين من المحدثين والكرخي من الزهاد وذكر من مجدي
الثالثة الخليفة المقتدر والفقهاء ابن سريح والطحاوي من الحنفية
والاشعري من المتكلمين والنسائي من المحدثين الخ وقد ساق

كلامه هذا برمته الشيخ مرتضى في شرح الاحياء ونقله ايضاً ابن حجر في الفتح والسبكي في الطبقات وزاد قائلًا لقد اخطأ من جعل الاشعري من مجددى القرن الثالث وحده وان كان ولا بد من عدم التعدد فليكن ابن سريج لان الاشعري تاخر بموته عن راس القرن الى ما بعد العشرين . وله رحمه الله رايه هذا وعليه دركه اذ المتبادر من الحديث انه لا يشترط موت المجدد علي راس المائة وانما يشترط ذلك في ظهوره . والحق ان التاج رحمه الله تابع في ذلك فقد ذكر قبله هذا الاخذ من الحديث المناوى في شرح الجامع للصغير عن كثير من جهابذة الرأى منهم الطيبي في حواشى الكشاف والكرمانى في شرحه للبخارى وزيف اخذهم هذا بما ذكرناه

ثم اختلفوا هل يشترط في المجدد الشرف واذا كان هل الشرف الطينى او الممنوى فقط وممن ذكر خلافهم هذا السبكي في الطبقات واختار منه القول الثانى وهو اشتراط الشرف المعنوي فحسب مستدلاً عليه بقول الامام أحمد — سقى الله عهده — نظرت في سنة مائة فاذا هو رجل من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عمر ابن عبد العزيز ونظرت في رأس الثانية فاذا هو كذلك من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الامام الشافعى قال أحمد ولا يستطيع ان اتكلم في الثالثة وما بعدها وما زاد السبكي رحمه الله على ان نسب هذا للامام أحمد بما لا يقبل الطعن

واستنتج منه ما يراه من عدم اشتراط النسبة الطينية مؤيداً ذلك بان جميع من ادعى فيهم التجديد من بعد المائة الثانية إنما كانوا مقلدين للشافعي ولم يكن واحد منهم خارجاً عن مذهبه إلا ابن سريج والاشعري وقليل منهم من كان محصلاً على النسبة الطينية فهو يرى أنه لا يشترط الشرف الطيني ويشترط المعنوي ومن جملة مقومات هذا في نظره كون من ادعى التجديد هو على مذهب الشافعي

وقد نقل كلامه هذا صاحب خلاصة الاثر في ترجمة الشيخ شمس الدين الرملی وذيله بكونه موافقاً لقوله عليه السلام سلمان منا أهل البيت ولقوله عليه السلام ءال محمد كل تقي و الحديث الأول أخرجه الطبرانی في الكبير والحاكم في المستدرک والثاني أخرجه الطبرانی بإسناد كاهي ضعيفة

ولما عرض صاحب كتاب مباحثة سلطان علماء الاظهر فيما نسب لسلطان المعارفين الاكبر لما قاله السبكي ووافق عليه كثير ممن بعده منهم السيوطي في حسن المحاضرة وفي التنبيه له أيضاً قال انه الصواب وينبغي أن يكون معتمداً ونهج منهجهم في ذلك العلامة القصار في ارجوزته حيث قال

لا تشترط في القطب والمجدد * نسباً الا العلم بالمعتمد
بقي أن ما قدمناه عن السبكي من أن مجدد ما بعد المائة الثانية لا يكون الا على مذهب الشافعي يناقضه ما ذكره هو بعد من أن من مجددي

السابعة ابن دقيق العيد إذ ابن دقيق العيد لم يكن شافعيًا
ثم لا يشترط في المجدد أن يكون مجتهداً حسبما نص علي ذلك
الحافظ السيوطي في كتابه التنبيه وهو الذي يرشد إليه أيضاً ما
تقدم عن السبكي مع كونه توبع عليه
ومن جميع ما سبق في هذا الفصل يمكننا أن نستنتج النتائج
السالفة الذكر والتوفيق بيد الله



الجهـد وقـيـمـة

ان جملة اشياء يجب ان يستعملها الانسان بقدر الحاجة ويتناول منها ما يتيقنه او يظنه كافيا والا كانت مضرة به والما بالغاً في حقه وكذلك الجهد في الحياة يجب ان يكون في غير افراط والكد فيها لا بد من ان يكون بتوازن واعتدال فقد عيت الجهد احيانا الجسم ويضنيه ويبلغه المهالك ويوهيه كالسم قليله ينبه وكثيره يقتل والجهد بعد هذا اساس طول العمر وسبب كثرة سنى الحياة فكم من شيوخ اكل عليهم الدهر وشرب واتقلت كواهلهم الايام بفروضها فلم يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء التي حملتهم اياها والأثقال التي القتها على عواتقهم فخطروا بين الناس وقد انحنت ظهورهم ونظرت الى الارض فقط عيونهم في انتصابهم عوج وفي انبساطهم التواء وعرج انت اذا بحثت عنهم تجدهم وقد كان هناك شاغل يشغلهم في الحياة وعائق يعوقهم عن الوصول للتمتع برفاهيتها والتنعم بنعيمها فهم دائماً يجهدون قواهم في صرف العائق وازاحة المانع حتى اذا نجحوا وتمت لهم البغية خلدوا الى اللذات وشغلوا بالشهوات فسكن ثأرهم الوجداني وذهب عنهم مهماز الجهد ومنبه العمل والنشاط فمنهم من قضى

نحبه ومنهم ينتظر وهذه طبيعة من طبائع الحياة لا تتمثل في الشيخ فقط بل وحتى في الشباب الا انها في الشيخ اكثر جلاء واقوى وضوحا فكم من شاب نجده يتنى الامانى ويطلب الزمان بما يجب ويريد كنجاح في امتحان او نيل وظيفة عالية او غير ذلك فهو يعيش بدافع الجهد ويعمل بنشاط قوى ومثابرة دائمة ذلك ليحصل على الامنية المقصودة والغرض المنشود فاعصابه في هذا الحين متنبهة وجسمه مكسو بكساء الحياة قد جرى في لونه ماء وعلى ديناجته حسن وبهاء حتى اذا ربح القضية وحصل على مراده ومتمناه نام ذهنه وارتاح باله فتراخت الاعصاب وكسف الضوء وغاض الماء وتصوحت الزهرة وتبدل الشطر والرواء وهنا يستسلم الجسم لغازى الموت ويركع امام مذبح هادم اللذات فيكون القضاء الأخير والفناء الابدي

سقم من سلامة وعزاء * من هناء وفرقة من وداد
يجتني شهدها علي ابر النح * بل وعشي لوردها في القتاد
وعلى نائم وكسلان فيها * اجل لا ينام بالمرصاد
والالعب الرياضية نفسها ليست لها قيمتها العالية ومكائنها الرفيعة
الا من حيث انها جهد دائم وتعب متواصل تنبه الجسم لغايته العليا
وتنفض عنه كسله وخموله وضجره وقنوطه فتجعله ذا نشاط في العمل
وخفة في الحركة تلك المميزات التي يمكنه ان يتغلب بها علي الامراض

الكثيرة التي تهدده والاسقام العديدة التي تتربص به الدوائر
وتتربص منه الكسل والخمول لتفتك به وتتهك قوته الضعيفة
« مهما بلغ امرها » فنحن نستنقع بالماء البارد في الصباح — اذا أمكن
— ونجهد النفس في تحمل المله الشديد ووطأتها العنيفة ذلك ليتوهج
الجسم بالحرارة الغريزية وتتهيج الاعصاب لمقاومة الحر والبرد في
حين اننا ايضا نخدم بذلك العقل ونكون في النفس حكم الاعتماد
عليها وعادة الايمان القوي بمبادئها مع سرعة الانتباه وقوة العزيمة
— ومثل الاستنقاع القفز والسباحة والمصارعة والعدو وغير ذلك
من الالعاب الرياضية المعروفة « بالجيمنستيك » والتي هي العامل
الثالث من عوامل التربية الجسمية في معاهد التعليم عند الامم
الراقية واولها الالعاب الحرة وهي ما يقوم به الطفل من الالعاب
بمحض اختياره الثاني التمرينات البدنية وهذه من اهم — عوامل
التربية في الجسم الا انها تتوقف على قوة الإرادة في التحرك مع
مضاء العزيمة فيه ونفاذ الراي الثالث الالعاب الرياضية وهي التي
يقوم بها جمع ضد آخر او فرد ضد فرد والغاية منها اولا التحصيل
على الجائزة المعينة او الفرع القريب وثانياً قوة الجسم ونشاطه مع
الخفة وسرعة الحركة الى غير ذلك الرابع الأعمال اليدوية كالخط
والرسم وعمل النماذج المختلفة وهذه تكون في التلميذ الرقة في العمل
مع الصبر والأمانة وتمرن الاعصاب المصدرة والموردة ثم ومما له

علاقة بموضعنا قضايا كثيرة لا زالت الى الآن مشكلاتها تشغل
فكر علماء النفس وتجهد قرائحهم الملتهبة وذكاهم المتوقد ذلك
لاستخراج عللها الخفية واسرارها التي غابت عن عقولهم الراجحة
وافكارهم المتنورة تلك القضايا التي هي من دواعي الحجب
والاستغراب في ظواهرها والتي هي خافية التعليل وغامضة الحقيقة
والكنه عن المفكر فيها واعل سببها يرجع الى ما أشرنا اليه من ان الجهد
ينبه أعضاء الجسم الى وظائفها ويجعل الاعصاب متيقظة في اداء ما
يجب لبقية الجسم عليها وعلى كل فالجهد — عموماً — مقياس صادق
لتقدم الامم ونهوضها ودليل قوي على سيرها في طريق الكمال ومهيئ
السمو والرفعة بل هو الشرط الاساسي لحياتها والعامل الجبار في
نضوجها العلمي والادبي والاجتماعي فيه يمكنها ان تنزع نزعاً ابتكار
واختراع وبه تكون ناظرة لمستقبلها نظرة فخر وإعجاب وسعيدة في
حاضرها الزاهر مع سمو واكبار اما الماضي فلسنا بممن
يحتفل به او يتشددق يوماً بمآثره ومفاخره
وهل ان كان حاضراً شقياً * نسود بكون ماضينا سعيداً



اسباب الرعدة عند العرب

كان العرب في عصرهم الزاهر ، الحافل بالعظمة والمفاخر ، يوم كانت الدولة دولتهم ، ولهم السيطرة المطلقة على العالم القديم ، بره وبحره ، حاضره وبدايه اعلم الناس بعلم الجغرافيا وفن تقويم الارض وتخطيط الاقاليم ، الامر الذي يدلنا عليه كثرة ما كتبوا في هذا الموضوع ودونوا حتي قال الاستاذ : اسماعيل على في كتابه « النخبة الازهرية » في تخطيط الكرة الارضية ان جل ما كتب عن عواصم الارض في جغرافيتها السياسية والتاريخية والرياضية كل ذلك يرجع الفضل فيه للعرب اولا — وقبل كل شيء — فهم الذين كتبوا فيه سابقين ووضعوا اصوله للباحثين والمنقبين ، ،

ولقد انتهى اينما انزروا من كتبهم هاذو وما وقفنا منها الا على القليل ، ولا كن في هذا القليل ما يجعلنا نفخر بابائنا الاولين ، ونعجب لثراهم الخالد ومجدهم المكين ، فمن ذلك كتاب « مسالك الممالك » لاصطخري ، وكتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذية وكتاب « الخراج » لقدامة ابن جعفر في

مسالك البريد ، وكتاب « الفوائد في اصول علم الارض والقواعد »
لابن ابي الركايب ، الى غير ذلك مما تحتفظ عليه خزائن العالم الكبرى
ويوجد في ذخائرهما القيمة وكان علم العرب هذا متسبباً عن كثرة
رحلتهم ، وطول سيرهم في الارض ، وملازمتهم للأسفار ، الامر
الذي كانوا مدفوعين اليه بعوامل كثيرة ، اهمها ثلاثة : التجارة وطلب
العلم والحج . اما التجارة فان الاسلام لم يمض على ظهوره نحو قرن
حتى عم اكثر بقاع الارض ، فكانت حدوده تتاخم الصين من الشرق
والحيط الاطلسي من الغرب ، وبداعى الرفاهية والنعيم ، وبعامل
التوسع ، في البلاد التي خضعت للدعوة الاسلامية ، واكتسحها
النفوذ العربي ، فقد استكثر الفاتحون من التوسر وجلب العبيد
لخدمتهم ، حتى انتشرت النخاسة لحد مدهش ، واخذ تجار العرب
يجوبون البلاد ويقطعون جلاب الدجى بجلم اليد وسيف العنق
فدخلوا الى قلب افريقيا وجنوبها ، وتوسعوا في الصحراء الغربية
والجنوبية كل ذلك جلب العبيد والتجارة فيه بل كانوا في عهد بني
العباس يفخرون بهاذه الحرفة ويعدونها من المزايا العالية ، ذكر
صاحب « عيون الاخبار » ان ابا دلامة مر بنحاس يبيع الرقيق فراى
عنده منهن كل شيء حسن ، فانصرف مهموماً الا ان دخل على
المهدي ، فانشده قصيدة يفضل فيها النخاسة على الشعر ، ويفخر
بصحبة هذا النحاس الذي مر عليه ، مطلعها :

ان كنت تبغى العيش حلواً صافياً * فالشعر اعذبه وكن نخاسا
وهذا ما جعل قصور الخلفاء — فى ذلك العهد — وبيوت الامراء ،
ماوى الرقيق على اختلاف اجناسه ونعدد عاداته وطباعه ولغاته
حكى ابن جرير فى تاريخه : ان احمد ابن صدقه دخل على المامون
يوم السعانيين : « عيد للنصارى » وبين يديه عشرون وصيفة مزنرات
قد تزين بالديباج الرومى ، وعلقن فى اعناقهن صلبان الذهب وفى
ايديهن الخوص والزيتون ، فقال المامون : ويلك يا احمد قد قلت
فى هاؤلاء أياتاً فغنتى بها ثم انشدنى :

ظباء كالذنانير * ملاح فى المقاصير
جلاهن السعانيين * علينا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغاً * كاذناب الزراذير
واقبلن باوساط * كاوساط الزنانير

فغناه بها فلم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه انواع الرقص
، وحديثنا الطبرى ان المتوكل كان له اربعة آلاف سرية ، قال
المسعودى : وهى من مختلف الاجناس طبعاً ويكفى دليلاً على كثرة
الرقيق لحد مدهش فى الحضارة الاسلامية تلك الثورة الكبرى
التي قامت على اكتاف العميد فى العراق ، والتي صمدوا بها للخليفة
للعباسي عدة سنين حتى جرح جرحاً بليغاً ، وكادوا يلقون الفشل
فى صفوفه ، فيقوضون بذلك صرح الخلافة وعرش العباسيين

فالريق اذاً كثير ، والنخاسة شائعة في كل الاوساط ،
وشيوعها — هذا — حامل لأصحابها علي التنافس وجلب الاحسن ،
ولا يكون ذلك الا بالبحث عنه في شاسع الاقطار ، وابعد البلاد
عن جزيرة العرب اما بقية انواع التجارة التي كانت تدعوهم الى
الرحلة ، وتحملهم على السياحة فذلك ما لا يكاد يعد امام عامل
النخاسة الذي فصلناه

اما الحج فان فرضه كان من اكبر الدواعي واعظم البواعث
للعرب على مواصلة السير وادمان السرى فهم ما كانوا يعتقدون
افادته من الناحية الدينية فحسب ، بل ومن ناحية الاقتصاد
والاجتماع ايضا ويرى علماء التشريع الاسلامي ، وفلاسفة الاجتماع
ان هذه الناحية هي السرى في اقرار الحج في الاسلام وجعله فريضة على
الناس فالعرب كانوا يتسابقون الى مكة المكرمة قصد اداء الواجب
الديني اولا وتناول اخبار بلادهم واحوال مجتمعهم ثانياً هذه الاخبار
التي كانوا يجهلونها باذق معاني الجهل لولا هذا الموسم العامر ،
والحفل الحفيل ، وهذا المؤتمر الاكبر الذي ينعقد في فردوس
العبادة في الارض ، وجنة الدنيا المعنوية ، هذا المؤتمر العامر الذي
يقصده عشرات الالوف منذ عهد اسماعيل الى آلان ، قال ابن دريد :
يحملن كل شاحب محقوق * من طول تدآب العدو والسرى
ينوي التي فضلها رب السما * لما دحى تربتها على البني

حتى اذا قابلها استعبر لا * يملك دمع العين من حيث جرى
اما السبب الثالث الذي هو طلب العلم ، فهنا يقف الباحث داهشاً
امام ما سجله التاريخ للعرب من رحلات بعيدة في طلب العلم ،
والكرع من منهل العلوم ، ومورد المعارف والفنون ، حتى قال
العلامة الكبير أحمد تيمور في كتابه « حضارة العرب في الاندلس »
انه لم يعرف التاريخ عالماً أندلسياً تم نضوجه وتخميرت المعارف
في ذهنه ، وليست له رحلة الى الشرق في طلب العلم ، قال : وكل
من ذهب اليه منهم رجع الى بلاده ما عدا أربعة ابو اسحاق
الشاطبي ، وابو بكر الطرطوشي وابن حيان ، وابن مالك

اما غير الاندلسيين من علماء العرب الذين عرفوا بالرحلة في
طلب العلم ، فشيء كثير لا تأتي عليه هذه العجالة ولاكن لنشير —
قصداً للإفادة — الى بعضهم موجزين

فمنهم ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ولد او اخر القرن
الثانى بحدود الصين ، وبعد تحصيله على مبادئ العلوم رحل في
طلب الحديث وتحقيق الفاظه الى خراسان ، وجبال الدربند
ومدن العراق والحجاز ومصر والشام ومن هناك رجع الى بغداد
حيث كان يحضر مجلسه على ما قيل عشرون ألفاً ، وبقي يتمتع
بالشهرة الذائعة ، رافلاً في حلل المجد والعظمة الى أن توفي بقرية
من قرى سمرقند رحمه الله .

ومنهم قطب الدين المسعودي صاحب كتاب مروج الذهب
ومعادن الجوهر ، فانه ما وضع مؤلفه هذا الحفيل ، وتاريخه العجيب
حتى جاب أقصى البلاد ، وطاف أكثر بقاع الأرض فدخل الهند
وقطع سواحل افريقيا الشرقية الى أن وصل الى شبه جزيرة العرب
ومنهم المؤرخ العظيم الهروي واضع كتاب « الاشارات الى معرفة
الزيارات » فقد حدثنا في كتابه هذا أنه زار مصر وسوريا واليمن
والهند وفارس والجزيرة والحرمين والروم ، الى غير ذلك .

ومنهم شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادى مؤلف
كتاب « معجم البلدان » فانه طاف لاجل جمع كتابه هذا جل
عواصم الارض وبلاد العالم ، وكان يتحمل مصاعب كثيرة فى تحقيق
الفاظه ، والروضوخ الى حكم العقل فى كثير من مسائله الجغرافية
والتاريخية والرياضية ، الامر الذى بوأه تلك المنزلة القعساء بين علماء
العالم وعظمائه رحمه الله رحمة واسعة .

ومنهم ابن بطوطة ذلك الرحالة الكبير والعالم المطلع الخبير ،
ولد بطنجة « سنة 703 هجرية » وبعد أن بلغ العشرين سنة من
عمره ، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة ، رحل الى الجزائر فتونس
وبرقة ومصر وبعد ما اتم بها دروسه العلمية ، وكمل فى نواحي
ثقافته ، ذهب الى الشام فالعراق فاليمن فسواحل افريقيا الشرقية
ومنها جزائر بحر فارس حيث دخل الى الأناضول ، ثم القسطنطينية

ومن هناك زار جنوبى روسيا الى أن بلغ شبه جزيرة القرم ، وفيها شاهد تباشير تلك النهضة العظيمة للدولة التركية ، فرآها وهي بعد طفلة في نشأتها الاولى ، وبدايتها الحميدة ، ومن ثم رجع الى الشرق فدخل خرسان ونجارى ومنها الى الهند حيث عين فى دلهى قاضيا ولاكن لم يكن هذا المنصب ليرده عن غايته ، ويصرفه وهو الحديدي الارادة عن وجهته ، فزهد فيه بعد سنة من تقلده اياه . ووالى رحلته الى سيلان وجزاير جاوه وسمطرة ومن هناك دخل الى بكين عاصمة الصين الكبرى ، فلبث فيها سنوات ثم رجع الى مسقط رأسه طانجة وهنا قوبل بحفاوة زائدة وخصوصا من ملك ذلك العصر أبو عنان المرينى — رحمه الله — وبعد أشهر من أوبته ، ذهب الى السودان ، فقطع قلب افريقيا واجتمع بامراء الزنوج وملوكهم ، وبعد ما اتم مهنته رجع الى طنجة .

هذه لمحة من ترجمة ابن بطوطة العظيم واكبر رحالة عرفه العالم فى ذلك العصر ، فلقد رأى ما لم ير غيره — إذ ذاك — وقطع المحيط الأطلسي والمحيط الهادى فهل كانت حياة أحد حافلة بلا ظمة عاصرة بالمتع مثل حياة مغربنا الكبير ابن بطوطة

وكم « للمغرب » من مفاخر ، ولرجاله من مزايا جليلة ومآثر ، فعسى الله أن يوفق قاداتنا المعاصرين وعلماء حاضرتنا المخلصين ، لسبر غور مجموعات التاريخ المغربى والبحث عن دفائن كنوزه

القيمة وذخائره التي لا زالت جوهرة في صدفها ودرة مكنونة
بين أسجافها فيخرجوا علينا بشموس هداية نيرة وأقمار توفيق
وإرشاد ساطعة في ظل مولانا ملك البلاد ناشر الوية المعرفة والعدل
في كل ناد من أشرقت أنوار العلم بعهدده فكان مشرقها وتقدمت
الفنون بعصره فكان مشجعها أدام الله عزه المبكين وحفظ في
شخصه المفدى شرف الاسلام وقداصة الدين

وبعد فهذه معظم الاسباب التي كانت تحمل العرب علي
الرحلة وتدعوهم اليها قد أوجزنا الكلام عليها في هذه العجالة فالى
فرصة اخرى وساحة تواتى بحول الله



﴿ العزيمية المحمدية ﴾ *

لقد جمع تاريخه صلى الله عليه وسلم تاريخ الانسانية الكاملة والأخلاق الفاضلة الشاملة تلك التي جهد الزمن أن يظفر بها وحاول الدهر أن يصل اليها فاتعبه الجهد واضنته المحاولة ولكن سرعان ما تحقق الأمل على يد معجزة الوجود الخالدة وسيد العالمين صلى الله عليه وسلم فكان في سيرته القويمة وهديه الرشيد أوضح موضع وانبل نبيل وابين مبين فهما أجهدت النفس لتكشف النقاب عن سر ذلك الكمال وأتعبتها لتصل لغاية ما في ذلك المبلغ السامي من تقدم ورفعة كنت وقد كلفتها ما لا طاقة لاحد به الا ذوي الهمم العالية والعزائم الفتية والا ذوي القلوب الصادقة في إيمانها المشرقة بنور النبوة وجمالها .

والكتابة في هذا الموضوع لا يقصد بها درس حوادث التاريخ وبيان الوقائع والمشاهد فذلك مما تكلفت به كتب السيرة وعمل على جمعه واستقصائه من كتب في الشمائل النبوية وانما القصد منها الدرس والتحليل واستخراج الحكمة والموعظة من ذلك التاريخ المليء بالكرامة والنبيل والشهامة والعزة . ذلك ليتيسر

فهم معنى الاسوة التي أمرنا الله تعالى بها في قوله لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . ولتشرب القلوب بمبادئه السامية وتذوق النفوس روحانيته العـالية . فما ساد العرب الأولون ولا كانوا كالنجوم اللوامع في ليالى الزمن المدهمة . إلا لان قلوبهم أشربت بمبادئ رسولهم الأكرم ومربيهم الأعظم ذلك الذي صاغه الله على أحسن مثال وأكمل وأودع في نفسه الشريفة قوة وعزيمة لو اجتمعت الأحداث ؛ وأتلفت الكرات على ان تضعضعها أو تنزل منها ما كان لها من الاثر الا كما يكون للريح الهوجاء حين تعرض للجبل الشامخ والطود العظيم لتزيله عن مكانه . سبحانك اللهم فقد امتنحت عزيمة نبيك صلى الله عليه وسلم وبلوت إرادته بما ينزل الجبال الرواسى وللشم العوالى فما فترت العزيمة ولا ضعفت الارادة حتى تقشعت السحب وذهب الغيم وبدا نور الحقيقة ساطعاً وضاء وظفر النبي صلى الله عليه وسلم بما أراد وما أعدده له وارسلته من أجله . ناديته يأيها المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » فلم يتردد لحظة في القيام بالمهمة التي القيت على عاتقه ولو كانت نفسه لها الفداء فدعا موضع ثقته من الناس ومن كان يركن اليه من البشر في حكمة بالغة وسر خفى جرياً على السبيل المستقيم وسيراً مع الطريق القويم حتى أوحيت اليه

أُصْدِعْ بِمَا تَوَمَّرَ وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَاخْفُضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَامَ يَدْعُو عَشِيرَتَهُ إِلَى اجْتِمَاعٍ عَامٍ وَمُؤْتَمَرٍ خَالِدٍ وَفِيهِمْ مَنْ أَكَلَ نَفْسَهُمْ بِالْبَغْضِ وَمَلَأَ قُلُوبَهُمْ الْغَيْظَ وَمَنْ لَا يَتَوَرَّعُ مِنْ مَجَابَهَتِهِ بِالْتَكْذِيبِ وَتَأْلِيبِ الْقَوْمِ عَلَيْهِ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَشَدُّ النَّاسِ عِتْوًا وَطَغْيَانًا وَتَجْبَرًا وَعِنَادًا وَلَا كُنْ أَيْنَ ذَلِكَ مِنْ عَزِمَتِهِ الصَّادِقَةِ وَثَبَاتِهِ الْقَوِيمِ فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْرِفُ كُلَّ هَذِهِ الْأَعْتِبَارَاتِ وَيَقْدِرُهَا حَقَّ قَدْرِهَا وَبِالرَّغْمِ عَنْ ذَلِكَ جَمَعَهُمْ فِي مَنْزِلِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ وَقَفَ فِيهِمْ خَطِيبًا يَقُولُ « مَا أَعْلَمُ إِنْسَانًا فِي الْعَرَبِ جَاءَ قَوْمَهُ بِأَفْضَلٍ مِمَّا جِئْتُمْ بِهِ قَدْ جِئْتُمْ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَقَدْ أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أَدْعُوَكُمْ إِلَيْهِ فَايَكُم يُوَازِرُنِي عَلَى هَذَا الْأَمْرِ وَأَنْ يَكُونَ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي فِيكُمْ فَاعْرَضُوا عَنْهُ وَقَامَ أَبُو لَهَبٍ يَدْعُوا الْقَوْمَ لِيَنْفَضُوا عَنِ الْمَجْلِسِ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ أَحَدٌ غَيْرَ عَلِيٍّ وَمَا يَزَالُ صَبِيحًا فَقَالَ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَوْنُكَ أَنَا حَرَبٌ عَلَى مَنْ حَارَبْتَ وَسَخَرْتُ الْقَوْمَ وَاسْتَهْزَأُوا وَتَمَسَّكُوا بِطَغْيَانِهِمْ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الْوَاهِيَةِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا أَبُو لَهَبٍ وَاجَابَهُ الْوَحْيُ عَنْهَا بِقَوْلِهِ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . اغْتَازَ أَبُو لَهَبٍ وَاسْتَدَّ غِيظَهُ وَغَضِبَ وَاسْتَدَّ غَضَبَهُ وَسَمِعَ مَا وَسَمِعَ الْجَهْدُ فِي تَأْلِيبِ الْقَوْمِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاثَارَةَ عَوَاطِفِهِمْ

وكان من أحقادهم فصبر عليه السلام لذلك صبر الكريم وكان أسمى
من كل ذلك واكبر وأعظم من أن يفت ذلك في عضده
أو يصرفه وهو الحديدي الارادة على وجهته . وكان من اثر
ما فعله أبو لهب أن اجتمعت قريش كلمتها وذهبت إلى أبي طالب
عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدافع عليه لتخيره بين أن
يكف ولده عما هو في سبيله أو يسلمه اليهم ليقتلوه ويعطون أبا
طالب بدله انهذ فتى في قريش وأجمله وهام يندرونه ثورة
الغضب على بني هاشم وها هو أبو طالب يلاينهم في القول
ويردهم رداً جميلاً ويضطرب قلبه خوفاً من العاقبة فيدعوا
إليه ابن أخيه ليقص عليه نبأ القوم فلا يحمل بني هاشم نتائج
قد تنال منهم فقص عليه الأمر ثم قال في شيء من القوة فابق
على وعلى نسبك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق . في هذه
اللحظة الرهيبة أجاب الرسول في عزم شامخ وقوة بالغة « والله
لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر
حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » فسيطرت قوة روحه
النبوية وعزيمته المحمدية على نفسية عمه وخاطبه بقوله « اذهب يا بن
أخي فوالله لا أسلمك لشيء أبداً . تبارك الله ما أقوى قلب نبيك
وأشد عزمه وأنبل غايته وأشرف قصده فمساك اللهم أن تجعلنا على
اثره وتشد أزر ضعفنا بقوة من عندك إنك على كل شيء قدير »

صدر الانسان بالجمال

كلنا تجذبه المناظر الحسنة وتستهويه المراتع الملهية المطربة
وكلنا تستفز نفسه رؤية الجمال ومشاهدته وسواء كان في الحيوان
الناطق أم في العجاوات بل وحتى في الجماد
فمن منا لا تحرك عواطفه ولا يقف مشدوهاً أمام قوس
قزح مثلاً ومن منا لا ينافس في إحراز التحف الصناعية الفنية
والطرف الجميلة التي هي من آيات الفن البديع والحسن الرائع
الخلاب حتى أخذنا ننشئ لها المتاحف ونشيد لها دور الآثار
الشاهقة في كل حذب وصبوب

وجمال هذه الأشياء الصناعية هو وإن لم يكن جمالاً طبيعياً
خالياً من عمل اليد الانسانية فيه واثرها المقارن في تكوينه
ونشوئه فهو جمال فن واثراً إبداع فائق ومهارة علياً نحن وإن
كنا لا نتذوقه كالجمال في الانسان ولا تصبوا اليه نفوسنا في
شدة وهلع ولاكنه وعلى كل مما يؤثر في النفس تأثيراً حسناً
ومن الاشياء التي تبعث فيها بواعث النشاط ومثيرات
الفرح والسرور

ولذلك كان الفن من جملة المقاييس التي تقاس بها حضارات

الأمم ومدنياتهم الراقية في مختلف الأجيال وعلى مر القرون
أسمى الشعوب تمدناً وحضارة * من كان منهم في الفنون عريقاً
وأحطهم من إن سمعت غنائهم * فمن الضفادع قد سمعت نقيقاً
فالغن مقياس الحضارة عند من * حازوا الرقي وناطحوا العيوقا
فلما ذا ياترى نتأثر بالجمال هذا التأثير البليغ ولما ذا تنفعل له
قلوبنا فيكسبها فرحاً قويا ونشاطاً فائقاً وما هي الصلة بيننا وبينه
وبين بعض الحيوان كالابل في طربها لتلحين الحداث وغنائهم
الشهي

ذلك ما اختلفت فيه أنصار علماء النفس وتضاربت فيه
أقوالهم منذ عهد بعيد واليك بعضها مع رأينا الخاص في كل منها
وتعليقنا عليه بساخ الفكر وعاجل النظر

جعل الكثير هذه الحاسة التي تميز جميل الأشياء من قبيحها
هي نتيجة التربية الصحيحة والعلوم التي تنمى في الانسان الذوق
السليم وتجعله مسروراً بجمال الأشياء مهما اختلف مظهر الجمال
فيهما وتعدد وهذه العلوم هي العلوم الوجدانية مثل النقش والرسم
والبناء فيما يرجع لليد والموسيقى فيما يرجع للسمع وءاداب اللغة
الذي يرجع تارة التعبير عن جمال الأشياء فيه الى البصر وذلك
كما إذا قرء الانسان ثراً أو نظماً وتارة يرجع الى السمع وذلك
كسماع الرواية التمثيلية

وهذه النظرية ساقطة بالحس والمشاهدة فجميع الناس يدرك أصل
الجمال ويتذوقه لغاية ما وإن كان هذا التذوق يتفاوت بحسب
سمو التربية وارتقاء ملكات المعرفة والعلم فتغريد الطيور مثلاً كل
أمة تستملحه وتشاهد فيه معنى الجمال وأثر الحسن والابداع مع
أن الامم تختلف موسيقاها وتتفاوت فيها أنغام التلحين ودرجات
التوقيع

فلو كان أصل تذوق الجمال ناشئاً عن التربية الصحيحة
والعلوم التي تنمي في الانسان ملكات الذوق السليم لما كانت كل
أمة تشعر بجمال تغريد الطير اذ هناك أمم جاهلة وأمم تضاهي
الحيوان الاعجم في حياتها الوحشية وزيتها الغريب

فلو كان هذا الشعور حقيقة يرجع لما ذكر كانت هذه الامم
أبعد الناس وانثام عن أن يصلوا اليه ويتذوقوه . هذا أولاً وثانياً
فإن كل أمة تدرك المثل الكامل لجمال المرأة مع رفاهية الحسن
فيها ونعومة الأعطاف حتى الزوج تعجبهم المرأة الجميلة فتري
الزنجي يقف مشدوها أمامها وقد كاد يفقد حسه وإدراكه فلو
كان شعوره بجمالها يرجع لعلو الثقافة فيه وصحة التربية لم يكن
عنده أدنى شعور وأقل تذوق

النظرية الثانية تجعل ذلك راجعاً لتناسب الجمال وانتظام
هياته — ذلك التناسب وهذا الانتظام هو الذي يجعلنا نقدر الجمال

ونحس أثره في نفوسنا الحية

وهذا كما حققه الكاتب الإجتماعي سلامة موسى في
مختاراته وان كان يوجد في بعض الأشياء الجميلة فتكون متسقة
الحسن ومتناسبة الاجزاء ولا كنه ليس مطرداً في كل جميل
فانت تشعر بجمال الجبل على جانب الوادي في حين أنك لا
تحتاج لاقامة جبل آخر في مقابلته ليتم التناسب وتتسق الاجزاء
وتستقيم الاركان

على أن هذا التعليل من أصله يشبه أن يكون تعريفاً
للجمال لا وجهاً لملاقته بالانسان وكيفية ارتباطه بيني البشر
والنظرية المعقولة التي يمكن أن نطمئن اليها ويرضاها
كل عالم منصف هي ان انفعالنا بالجمال وتأثرنا به يرجع لارتباط
الانسان بالطبيعة واتصاله بالثين بتطورها وتدرج ما فيها على ما
يقولون من نبات الى ماء ومن ماء الى حيوان ومن حيوان
أعجم الى حيوان ناطق الى ما في الانسان من جمال فتان وحسن
رائع خلاب

وهذا هو الذي جعل إدراك الانسان للجمال لدنيا فمن الذي
يحتاج الى شيء في إدراك جمال أريج الزهرة وحسن لونها
الرائق الخلاب . ومن الذي يتوقف على تعلیم في إدراك جمال
خد حكمت ديباجته رونق الحجر ويكاد سني ضوئه يذهل النفوس

ويذهب بالأبصار ويفتن الصالحين عن سبوحهم في غيبوبة الازكار
فما بقي الا أن علة الانفعال بالجمال والتأثر به هي طبيعة
في الانسان لا يحتاج في اكتسابها لعلم ولا لمعرفة ولا
لتقليد اي أحد كان

وهناك دليل آخر على صحة هذه النظرية وهو أننا نرى
الشعور بالجمال يزيد وينقص بحسب تقدم الزمان وتطور العالم
في مهيع الرق وسبيل النضوج والكمال إذ نحن الان نستحسن
هذا النقص الذي وجد في قامة الانسان وبلغ به الى التطور
الذي هو عليه والذي جعله في أزين وصف وأتقن رصف في
جماله ما تنقصع به سرائر الاكباد وتتقطع له أفئدة الشعاعين
ووشائج القلوب المرهفة فيه مايونق أبصار الناظرين ويفتح
أفئدة المصابين والمتأملين

وهذا بخلاف ما كان عليه يوم وجد وطوله ستون ذراعاً
يوم كان يخصف عليه من ورق الاشجار ليوارى عورته ويستتر
سواته يوم كان وهو مكتس بالشعر حتى صار عجبه ذنباً الامر
الذي يدل عليه بعض ما يوجد في الانسان من خلق غريبة
يستدل بها داروين في كتابه اصل الانواع الذي نشر سنة
859 على أن الانسان لم يكن على شكله هذا بل تطورت

خلقته وتشكلت مع تقدم الدهر وتقلب الزمان

ولقد تجاوز داروين في نظريته هذه حتى جعل الانسان متسلسلا عن القردة وهذا هو الذي لاجله قامت قيامة رجال الدين وضجت ربوعهم على داروين فناقشوه ادق مناقشة واحدها حتى اضطر داروين اذ ذاك للعدول عن فكرته التي تبين من وجه ما جاءت به الكتب السماوية « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » والتي جاءت في وقت غير مناسب أي منذ 84 سنة وقبل وجود المستكشفات الحديثة والاثار العتيقة في القدم وطول العهد على أن داروين لم يقصد هذا وإنما قصد ما يسمى عندهم بالحلقة المفقودة وسنخصص لنظرية داروين هذه والبحث عنها بمشيئة الله مقالا فيما بعد

وايضاً فاننا اذا استقرينا المناظر الطبيعية وكل ما يتصل بهاذه المناظر من موجودات وكان هذا الاستقراء على ضوء ما حققه اصحاب نظرية النشوء والتطور من ان العالم كان جماداً ثم وجد فيه النبات ثم الحيوان وهذا تدرج من الماء الى اليابسة وتوالى منه هذا التدرج حتي ظهر الانسان من جهة والحيوان من جهة اخرى نجد هذه النظرية على جانب من الوضوح والجلاء فانت حينما يكفهر وجهك لمنظر جبل اجرد وتكربك صورة صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا ماء لا تلبث ان يخامرْك السرور

وتمتلكك اللذة ويهزك الطرب متى رنا بصرك لارض قد
أخضرت ربها وبسط فيها الدوح اجنحته للشمس والهواء
والطبيعة الساحرة والجو الفتان فكان المنظر بديعا والمرتع راقصا
خـــــــــــــــــلابا

منظر فيه للحياة حياة * تترك الواله الحزين طروبا
ثم ان هذا السرور لا يلبث ان يتضاعف ويزيد اذا كان منظر
الجمال في الانسان وخصوصا اذا كان بهي الطلعة جذاب المحاسن
والاوصــــــــــــــــاف

من جمال الى دلال بغنج * في حياء بعفة مريمية
هذا التطور في الانفعال بالجمال مع تطور الطبيعة هو « كما سبق »
الذى يدل على ان التأثير بالجمال هو اثر من اثار الطبيعة وبالغ
عملها في الانسان بقدره الله



فكرة داروين عن الاصل البشري

لقد واعدنا بانشاء بحث عن مذهب داروين في أصل النوع البشري وعن أي شيء تسلسل الانسان ومن أي حيوان هو متحدر وعرضنا بإيجاز لما يقوله هذا العالم من أن الانسان أصله القردة حسبما فهمه عنه تلاميذه وقلدهم فيه كل من كتب في الموضوع ودون وقلنا انه لم يقصد هذا وإنما قصد ما يسمى عندهم الحلقة المفقودة أو الاصل المجهول

والآن وحينما نعرض لفكرة داروين أو غيرها من افكار غريبة لا تتفق مع الدين ونصوص القراء العظيم لا يسعنا الا تكذيبها بعامل الاعتقاد الديني في نفوسنا وقوى السيطرة الروحية في قلوبنا جازمين بأحقية ما نطق به القراء ومتيقنين بصدق ما جاء به ذلك الكتاب الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . مع اعتقادنا أنه لا بد من عودة هذه الأفكار كلها لما قاله الكتاب المقدس وأفصح عنه التنزيل كما وقع في كثير غيرها من النظريات العلمية

نذكر منها كمثال قوله عز وجل « وكل في فلك يسبحون » فهو يثبت حركة جميع الاجرام مع أن الفلكيين في عصر الوحي

كانوا يقولون بالشوايت والسيارات فاضطروا بمعامل هذا القول الى
تاويل الاية على أبعد الوجوه فيها واضيق احتمال تقبله

والآن قد قرر علم الهيئة الجديد ما اقتضته الاية من حركة

جميع الأفلاك وصدق الله وكذب تاويل المبطلين

أخطأ الباحثون في الانجم الزه * ر فقالوا لبعضهم قرار

لا تخل في السماء ثابت نجم * كل نجم في فلكه سيار

إنما الثابتات في كريات الـ * جو هاذي النقوش والاحجار

لا ولا كن لهن سير خفي * عرفته الرموز والاسرار

ولا كن القرءان الذي يجب أن نعتقد عنه هذا هو نفسه أعطانا

حرية في بحث جميع المذاهب العلمية والافكار الجديدة مهما كانت

صبغتها وكيفما تشكل اللون فيها وظهرت الحقيقة عنها

وهذا هو الذي جعل العلماء منذ صدر الاسلام لا يخرجون

في ترجمة كتب ديانات اخرى وامم كثيرة طالما جابهت المسلمين

إذ ذاك بالعداوة وبارزتهم المكيدة والبغضاء ولقد عد ابن النديم

في كتابه الفهرسة خمسة عشر مترجماً للغة الفارسية فقط في

الدولة العباسية « راجع صفحة 244 من الكتاب المذكور »

وذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب مجلد 1 صحيحة

109 لابن المقفع وحده إثني عشر كتاباً ترجمها عن الفارسية

وإذاً فلا حرج إن نحن طالعنا اليوم قراء العربية بأفكار

داروين وتكلمنا عنها بما هو نتيجة دراسات قيمة لجل ما كتب
في هذا المذهب الذي وضعت عنه آلاف الكتب وتصادمت
فيه آراء مهرة الباحثين واساطين العلم والمعرفة

ثم ولا علينا أيضاً في سرد أدلة قوية دامغة هي عصارة
فكر أجهده العمل وأتعبه البحث المتواصل والدرس الدائم المستمر
تلك الأدلة التي يمكننا الآن إدراكها بفضل المستكشفات الحديثة
والاثار السحيقة في القدم وطول العهد مع تقدم العلم واطراد
سمو الفكر البشرى، ذلك الاطراد الذي لا يمكن لاحد ان يتنبأ
له بمدى غاية يقف عندها أو نهاية معلومة يصل اليها

نعم سأقدم بين يدي الثقافة والعلم جملة من هذه الأدلة
يمكن لمن يعتقد مذهب داروين على وجهه أن يستدل بها ويتيسر
لى الآن أن أجعلها كباقة أزهار عطرة تحية لاساتذتنا الأفاضل
اولائك الذين خلدوا أنفسهم بما كتبوا عالياً في هذا الصدد
وغيره واولئك الذين أتشرف اليوم بمشاركتهم في الموضوع
واضافة أفكارى المتواضعة لأفكارهم الجبارة التي لها فضل على
الانسانية كلها والعالم أجمع

ثم وهناك حقيقة ينبغي أن تعرف ذلك ان هذا المذهب هو
في الاصل لعلماء فرانسيسين تجاوزت به أفكارهم المتقدمة منذ عهد

بعيد منهم ما ييه وايتين ولا مارك وليس للعلامة داروين فيه غير
اظهاره بعد الخفاء والمجاهرة به في الأوساط الثقافية وبين ظهري
شباب بريطانيا الهاديء الرزين
واليك الأدلة

أولا ما اثبتته النطاسيون من أن القرد يشارك الانسان
في عدة امراض لا يشاركه فيها غيره من الحيوان منها السل فلقد
وجدت في اثار مصرية جثة كثيرة للقردة والانسان قد ظهر
فيها أثر الإصابة بالتدرن الرئوى كما يوجد بدار الاثار بالقاهرة
أجسام منحطة وفيها قروح درنية الأمر الذى يدل على أن هذا
الداء وجد في الانسان منذ عهد بعيد وشاركه فيه القرد
ثانياً عملية الترسيب فراسب القرد كراسب الانسان لا
يختلف عنه ولو قليلا

وهذا لا يدلنا على القرابة الدموية فقط بل يزيد عليها بأن
تراكب معدته كتراكيب معدتنا ومن العجب كون التشریح لم
يفدنا عن ذلك شيئاً

وعملية الترسيب هاذة نرى بعض المحاكم الأجنبية — في الوقت
الحاضر — يستند اليها في تحقيق الجرائم ويعتبرها القضاة كأكبر
الحجج وأقواها لما علم عندهم عنها من الصحة وعدم التخلف
ثالثاً التطور الذى يتطوره الجنين في بطن امه فمن علقه

الى جنين طوله من 12 الى 15 سنتيمترا و ثقله من 100 الى 125 غراماً الى أن يتضاعف وزنه وتظهر في راسه شعرات بيض مع تميز الفم والانف ولا زال يتقلب من طور الى طور الى أن يبلغ طوله في الشهر التاسع من 50 الى 60 سنتيمترا ووزنه من 3 كيلو الى 5 وقد يزيد الى 6 كيلو كما شوهد في بعض الاطفال وهاذا التطور ليس خاصا بالإنسان فالحيوان كله يتقلب في بطن امه الحنون وتمر عليه أطوار يزيد فيها شيئاً فشيئاً حتى تتم خلقته ويكمل تكوينه بقدر ما يستطيع أن يجابه صدمة الحياة وتقلب الطبيعة في الكون

رابعا ما يوجد في الانسان من أعضاء أثرية « كالاعور » هاذه الاعضاء التي كانت تقيده يوم كان على حالته الطبيعية يعيش على الاثمار وياوى الى غصون الاشجار يوم كان ياكل البقول على طبيعتها والحبوب صلدة قوية لها من أسنانه رخی ومن معدته نضج وتسوية . أما الآن وقد استغنينا عنه فان الجراحين يستأصلونه في الانسان ويرونه ذا فائدة في غيره من الحيوان

ولنمسك الآن عن هذه الادلة ففي هذا القدر للمستعجل كفاية ثم لنكرر النظر فيها ولنكرر فهي بعد هذا وذاك لا نجد لها تدل على أن القرد أب للإنسان كما يقول بعض الغلاة والمسرفين ممن حملوا نظرية داروين على ذلك فكانت مخالفة

للقرءان من كل وجه ومباينة له في وضوح وجللاء الأمر الذي نحن مضطرون كما قلنا في صدر المقال لتكذيبهم فيه وعدم موافقتهم عليه وانما هي دالة على أن كلا من الانسان والقردة متحدر من أصل واحد يعبر عنه علماء الغرب بالحلقة المفقودة أو الأصل المجهول ويجعله بعض علماء الاسلام كابى بكر بن العربى فى قوله عز وجل « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » هو آدم نعم هو محجوج بما رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهى مما مسخ : إن الله لم يهلك قوماً فيجعل لهم نسلاً وان القردة والخنازير كانوا قبل ذلك من هذا الوجه الذي ذكره أبو بكر بن العربى مع ما حملنا عليه نظرية داروين يمكننا أن نوفق بين العلم والدين ونجعل القرءان سابقاً للكشف عن حقيقة علمية لم يقدر للبشر معرفتها حتى الآن

وهذا الذي قاله خاتمة علماء الاندلس هو ظاهر القرءان وهو الذى يساعده العلم أيضاً نعم الحديث المذكور عن ابن مسعود يخالفه والعلم عند الله

التخصص وبعض مظاهره في الثقافة العربية

كل أمة يقاس رقيها الذهبي وسموها العالی بسعة ثقافتها ووفرة علومها وءادابها ونجاح فنونها ومبتكراتها ، الأمر الذى طبع الله عليه الخليفة منذ بدايتها الى الآن ، وجعلها مفطورة على اعتباره مع كر القرون وتطاول الأزمان

وليست الثقافة بمتوفرة ولا العلوم ببالغة أوج الكمال سواء فى الفرد أو الامة إذا لم تكن هناك نزعة صحيحة وميل جدى لنوع من أنواع الثقافة وناحية من نواحيها الكثيرة تخصص بالدراسة والبحث والمقارنة والاستنتاج والمحاضرة والتأليف الى غير ذلك . فالثقافة مهما بلغ مداها وتكاثفت وشائج عراها الا وليست مغنية عن صحة النزعة والتوجه الصادق نحو التخصص فى العلوم ، والآداب والمخترعات والفنون

إذ من اليسير التبسط فى أنواع الثقافة ، والتبحر فى كثير من الاتجاهات العلمية ثم يكون التحصيل على معارف الاولين والاخرين ويقع تدوين أساطير المتقدمين واخبار الغابرين الى غير هاذ ، ولكن كل ذلك فى الحقيقة حبر على ورق وبعد بالعلوم عن جعلها ملكة للمتعلمين ناضجة فى ذهنهم ممزوجة

بدمهم ممثلة في أجسامهم

ويمكننا أن نضرب على ذلك مثلاً فهاؤلاء الاغريق مهما
تتبعنا نواحي ثقافتهم وأنواع معلوماتهم ومعارفهم إلا ونجدها
في عددها قليلة وقليلة جداً . إذ هي لا تتعدى الفلسفة والرياضة
والفلك والطبيعة والحياة والطب مع كونهم نفخوا في الثقافة
العمامة من روحهم ، وغدوا الأجيال بصادق عارائهم وافكارهم
وأمدوها بنتائج قرائحهم المتقدمة وذكائهم المشتغل حتى أن الفلسفة
لا زالت الى الآن عالة على سقراط وافلاطون وأرسطو ومن
اليهم من فـ لاسفة اليونان ولو لم يكن من اثرهم إلا مدرسة
جنديسابور التي احتاج أبو جعفر المنصور لاحد أطبائها واستجلبه
لعجز أطباء بلاده عن معالجته لكفى فقد حكى القفطى صحيفة 152
ان أبا جعفر المنصور عند ما بني بغداد اصيب بمرض في معدته
فلم يستطع أطباؤه معالجته فدلوه على جرجيس ابن بختيشوع
رئيس أطباء جنديسابور ومن ذلك الحين اتصلت قصور الخلفاء
بالمدرسة الرومانية حتى أن الرشيد أمر جبريل ابن بختيشوع
أن يعمل ببغداد بيمرستاناً على نمط بيمرستان جنديسابور
وقلده رياسته

نعم إن أنواع العلم واختلاف الفنون كان قليلا في
الاغريقين وقليلا جداً ولاكن نزعهم لما نزعوا اليه من ذلك

كانت صحيحة وقوية

فقد كان أرسطوطاليس منهم يجمع العشب من شرقي افريقية
وجزيرة العرب وغيرها من مختلف البلدان وكان يرتبها ويفرزها
ويضع أسماءها ويذكر خواصها وأبداع أوصافها وكان يجمع من
حيوان البحر الشيء الكثير وياخذ في تشريحه بمشرطه جاداً
في البحث عن أخص أوصافه ومميزاته الطبيعية ثم يضع عنه ما لا
يزال الى الآن في الطب قانوناً يحتدى ودستوراً شاملاً يرجع اليه
فهاذه النزعة الصحيحة أو التخصص كما نسميه هو الذي
أوجب الخلود لهاذه العلوم وجعل العالم يستفيد عنها ويكرع من
منهلها الصافي من أقدم العصور الى الآن

ففي جامعات أوربي علوم تعرف بالإنسانيات هي علوم
اليونان وءثارهم وناهيك بهذا الاسم الذي تحمله وهو الانسانيات
وعلى العكس من اليونان براهمة الهند ومنادرة الصين
فهاؤلاء قد كتبوا ما لا يحصى والفوا ما نحن عاجزون عن
استقصائه وتتبعه ولاكن ما ذا أفادهم ذلك في تقدمهم العرفاني
ونضوج ملكاتهم العلمية ، فلقد كانوا يحملون ذلك في أذهانهم
كما تحمل أضاير المكاتب أسفارها فلاهو يرتقي بهم ولاهم يتقدمون
به ذلك لانه خلو من وحى الرقى وعظمة الاستنتاج والاستنباط
ولأن الكثرة الى غير حد وفي غير جدوى تذهب بكل شيء

فالتخصص إذا هو الذي يجعل ثقافة الأمة خالدة على الاجيال
ويحليها بشارة التفوق العرفاني ورمز الحياة الباقية مدى العصور
ولهذا رأى كثير من أئمة ثقافتنا العربية وجمهرة رجالها الخالدين
إن نضوجهم الفكري في كثير من نواحي المعرفة ووجوهها لا
يأتي اكله شهياً وثمره جنياً حتى يوجه كذلك نحو غاية يخوض
غمارها من جديد ويسبح في بحرها الطامي المتراكم الزبد فيطفو
الى السطح وفي قبضته لامع الدرر واجمل اليواقيت تلك التي يتخذها
العاملون من ورائه للغاية نفسها رمز هداية ورائد توفيق وصلاح

من هاؤلاء الفيلسوف الشهير أبو الوليد بن رشد فقد كان واحد
زمانه في الفقه والخلاف والحديث والتفسير وغير ذلك الامر
الذي جعله مكيناً عند المنصور ووجيهاً في دولته

حكى ابن أبي الصبيعة قال حدثني القاضي أبو مروان الباجي أن
المنصور لما كان بقرطبة وهو متوجه لغزو الفنس عام إحدى
وتسعين وخمسمائة استدعى أبا الوليد ابن رشد فلما حضر عنده
أجله كثيراً وقربه حتى تعدى به الموضع الذي كان يجلس فيه
أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص الهنتاتي صاحب
عبد المومن وهو الثالث أو الرابع من العشرة وكان أبو محمد هذا
قد صاهره المنصور وزوجه بابنته فلما قرب المنصور ابن رشد
وأجلسه الى جانبه حادته طولا ثم خرج من عنده فوجد جماعة

الطلبة وكثيراً من أصحابه ينتظرونه حيث اخذوا يهتئون به بمنزلته عند المنصور وإقباله عليه فقال والله ليس هذا مما يستوجب الهناء به فان أمير المؤمنين قد قربني دفعة الى أكثر مما كنت امل فيه أو يصل رجائي اليه الخ. وكان ابن رشد رحمه الله تفرس إذ ذاك بما سيقع له مع المنصور وما سيعامله به هاذا في آخر الأمر — وفراصة المومن قلما تخطيء — وكذلك فان ابن رشد قد حظى عند أمير وقته وحصل على شهرة ذائعة بين معاصريه واهل زمنه

ذلك لكثرة ما ألف في أنواع المعرفة والعلم وعظيم ما أملى من دروس نافعة كون بها كثيراً من الافكار الراقية والعقول التي بلغت نضوجها الاعلا وسموها الرفيع ولكنه أخيراً اشتغل بكتب أرسطوطاليس وما كتب عنه من آراء في فلسفته اليونانية وتخصص لذلك حتى وضع فيه عشرات الكتب ومآت الرسائل ويدلنا على تخصصه هذا مؤلفاته عن أفكار هذا الرجل العظيم فهي تدل بتاريخها على ان هذه المؤلفات هي من آخر ما كتب ابن رشد في حياته من جملتها تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس وتلخيص كتاب البرهان له وتلخيص كتاب السماع الطبيعي له أيضاً وشرح كتاب السماء والعالم وتلخيص كتاب النفس وغير ذلك مما يطول تعداداه ومما كتب في هذه

الناحية الفلسفية تلك التي كانت سبباً في القضاء على سمعته وتقويض ما بناه من مجد عرفاني استطاع أن يتفوق به على أبناء عصره ويحصل على قصبة السبق بين أقرانه ونبغاء عصره وكذلك فذكاء المرء محسوب عليه والفكرة النابغة قلما تجدد في أول الأمر انصاراً أو تحصل على معتنقين واتباع بل على العكس لا تجد في الغالب الا معانداً أو جاهلاً فتكون سبباً للقضاء على مميزات صاحبها والنيل من قيمته الادبية ومكانته العليا ومنه ما وقع لهذا الرجل العظيم

حكى الأديب ابن الصبيعة في طبقاته قال لما اشتغل الأديب ابن رشد بكتب أرسطوطاليس في آخر عصره تقم عليه ذلك المنصور وامر أن يقيم في اليسانة وهي بلد قريب من قرطبة فكابد ابن رشد في منفاه هذا كل الشدائد والارزاء وبقي هناك الى أن تشفع له عند المنصور أبو جعفر الذهبي فاصدر اذ ذاك عفوه عنه

ومن جملة هؤلاء الذين اشتغلوا في أول أمرهم بانواع المعرفة وكثير من نواحي الدراسة والبحث والقوا واملوا في ذلك الشيء الكثير ثم تخصصوا بعد هذا وذاك لغاية واحدة حجة الاسلام أبو حامد الغزالي الف في أول الأمر كتاب الوسيط والبسيط والوجيز والمخلصة والمستصفي وغير ذلك من كتبه الخالدة وكان

يلقى دروساً مفيدة بالمدرسة النظامية ببغداد وغيرها . واخيراً
انقطع للزهد والتقشف والدين المتين والعبادة القوية معرضاً
عن الناس متوجهاً الى ربه باذكاره اللذيذة الحلوة ودعواته
الصوفية الجميلة تلك التي تملأ القلب نوراً بنفحاتها العلوية وتهز
كيانه بنغمات ألحانها العذبة الشهية تلك التي هي اغرودة خالدة
في عالم الفناء تنفث السحر وتصل عالم الارض بعالم السماء
ولا زال في خلوته هذه حتى طهر قلبه وصفت سريرته واذا ذاك
فتح الله عليه بعلم ما لم يعلم فاشتغل بوضع تاليفه احياء علوم
الدين الذي لم يؤلف في الاسلام مثله في بابيه لاقبله ولا بعده
وما كان كذلك في نظرنا الا بفضل تخصص الغزالي اخيراً
لعلم الحقيقة وانقطاعه لها مضحياً في سبيله بكل عزيز وغال

ثم وهناك مما هو جدير بالذكر في طريف موضعنا هذا
شخصية بارزة وكم للادب العربي من شخصيات طواها النسيان
واغفلها قلم قادة الكتابة في العصر الحاضر وما يدريك لعل
السعد طواها للانتاج المغربي الاخير فكائنات واحدة الايات
ومعجزة مما ابداه من فاخر المعجزات واشرفها . هذه الشخصية
التي — وكما قلنا — تتصل بوثوق مع موضعنا الذي نكتب
حوله قد قال صاحبها الشعر في مختلف اغراضه واخيراً تخصص
للغزل فقال فيه ما سيظل انشودة الدهر الخالدة واية الجمال

الأغاني قوله في رمشاة جارية بعض الحنفين

أكذب طرفي عنك والطرف ساهر واسمع اذني منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الارض التي تسكنها لكي لا يقولوا صابر ليس يجزع
فلا كبدي تبلا ولا لك رحمة ولا عنك اقصار ولا فيك مطمع
الى آخر هذه القصيدة التي شاء لها جمالها الفني البديع أن تكون
انشودة الروح في عصر النور وعصر النضوج والكمال وتلك
آية الخلود وشارة التفوق والابداع

وبعد فهذا مجمل دراسة بسيطة لموضوعنا القيم وأرجو أن
أوفق في ساحة أخرى لأتناوله بأسهاب وتلك أمنية وتحقيقها بيد الله



الادب العربي في رعاية امرائه

مهما بحثنا في تاريخ الادب العربي إلا ونجد قد نال من تشجيع امرائه في مختلف العصور ، ما لم ينله أدب امة اخرى ، حتى أخذ كتاب العرب ومسجلوا تاريخ ادبها ، يعملون ذلك التشجيع من أهم الاسباب لازدهار الادب العربي ، وتفوقه عالياً في مختلف الميادين وكل العصور

غير أن الباحث المدقق والمطلع الخبير ، لا يسلم وبالبداهة هذه النظرية بل يراها بالعكس وعلى طول الخط — كما يقولون ذلك ان الامراء يوم أغدقوا على الشعراء ، ومنحهم تلك الجوائز الضخمة والعطايا البليغة التي قاربوا بها حد التيدير أو كادوا لم يقصدوا الانهاض من الادب العربي لذاته ، ولا تشجيع الفن لنفسه ، بل كانت لهم غايات شخصية ومآرب سياسية معروفة كان يتوقف عليها نظام إدارتهم ، وسير حكومتهم في الطريق الموافق لما في نفوسهم من ميول ، وسياستهم من أغراض ، فمن مناضلة أعداء الى بعد صيت ، ومن تأييد دعاية ، الى توسع في دائرة سياسة وملك

ويدلنا على ذلك أن هؤلاء الامراء كانوا لا يتطلبون من

فنون الشعر واغراضه غير المديح وكيل الثناء بالمدقنطاراً ، فهل هناك واحد منهم أجاز شاعراً لنبوغه فى النسيب ، وتفوقه فى الوصف ، وهل تجد منهم من أثاب على بيت حكمة ، أو قطعة جرت فى الناس مجرى المثل

إن الشعر هو الشعور المطبق الصادر عن دافع وجدانى وعامل نفسى قوى لا يرى معه الشاعر محيداً سوى أن يسجله قصيداً رائعاً يخلده على الأجيال ، ويكون أنشودة الحياة وترجيع العصور الآتية من بعده . وهذه صفة تنقص شعر المديح الذى لا يصدر الا عن دافع مادى ، وصلة بعيدة عن نفس الشاعر ووجدانه ، بل فقدان هذه الصفة فيه هو الذى جعله مشوباً بالتهويل الرائع ، والمبالغة الكاذبة ، والاسفاف الوضع والاحالة الدنية ، وهو أيضاً الذى جعله لعباً بالألفاظ واصطناعاً للمحسنات وإغراء لناظميه على السرقة من متقدميهم ، وتعاور معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً . وما كان المدح والاطناب فيه يقف بالمداحين عند هذه الغاية ، بل جر عليهم غرضاً آخر من أغراض الشعر كان لازماً للمدح وقلماً ينفك عنه ذلك هو الهجاء . لان ارضاء المدوح كان يستتبع ذم خصومه ، أو ذمه نفسه اذا هام الشاعر فى واد غير واديه وانقلبت اطاعه منه الى غيره . وايضا فان المداحين كانوا يتنافسون على التقرب من الامراء ونيل جوائزهم

السنية وربما يزاحم بعضهم بعضا على ذلك فيتبادلون الهجاء ويتضاربون بنبال السباب والشتم ، والزراية والتنقيص . وكان الامراء يستثمرون ذلك منهم ، ويشجعونهم على تراشقهم ببذيء القول ، شغلا لاذهان العامة ، وتوجيها لافكار الناس في غير شؤون الامارة واحوال السياسة والملك

ولعله من ثمار هذه النزعة تلك القصائد المقذعة ، والمطولات
الهجينة التي كان يتبادلها جرير والفرزدق والأخطل وكان يأخذها
عنهم الرواة فيرددون صدها في معظم الشرق العربي إذ ذاك
على رغم ما انطوت عليه أحياناً من بعد سحيق عن حدود
الشرف ، وقوانين المروعة والنبل ، وما لا تسيفه رجولة قط
نذكر كمثال على ذلك ما نقض به الفرزدق قصيدة جرير

التي مطلعها

لولا الحياء لهاجني استعمار * ولزرت قبرك والحبيب يزار
وهي موضوعة في رثاء جرير لاجمراته ، وقد نقضها الفرزدق
دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة ومن نقضها قوله
كانت منافقة الحياة وموتها خزي علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الاتان لقد بكى جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكى على امرأة وعندهك مثلها قعساء ليس لها عليك خمار

《 《 《 《 《 《 《 《 《 《 《 《 《 《

إن الزيارة في الحياة ولا أرى ميتاً إذا دخل القبور يزار
أنتج المديح هذا الغرض من الشعر ، وغرضاً آخر هو
أبعد من الاول عن الشاعرية ، وأكثر منه إغراقاً واسفافاً
وغرابة ، ذلك هو النسيب الاستهلاكي الذي لزمه كثير من
المداحين في أول قصيدهم ، وعملوا به على التشبه باخوانهم شعراء
الجاهلية كأمراء القيس والناطقة الديباني وغيرهم كثير . وناهيك
بما يمكن أن يجر في ذيوله هذا النوع من الشعر ويخنيه على
الناس من رخاوة طبع وميوعة أخلاق وقتل للغة ، وقضاء
على الغيرة والشهامة

فالحق ان شعر المدح خلوه عن الدافع الوجداني ، والشعور
الصادق ، قد جر على الادب العربي جميع هذه النقائص واخرى
على غرارها ، هي في الحقيقة أشد منها ضرراً واهم وقعا
منها ما فشى في الشعر العربي كله من عيوب المبالغة
والتقليد ، ومحاولة ابداء البراعة والصناعة اللفظية

ومنها إضاعة جانب ضخيم من عبقریات كثير من الفحول
كأبي نواس وابن الرومي والبحتری والمتنبي والطائي وغيرهم كثير
من الذين استرقطهم هبات الامراء وجوأت الملوك والسلاطين
فنظموا كثيراً من الاكاذيب ودونوا ما لا يحصى من المفتریات
والأراجيف مثل

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربتهم نوح فيها الثواكل
ومثل

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بكرة عين ونوال الغمام قطرة ماء
ومثل

تعود بسط الكف حتى لوانه ثناها لقبض لم تطعمه أنامله
ومثل

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعودها بنغمة طالب
فها نحن نرى الى أى حد خرج المديح بفحول الشعر ، ومن
بعدهم امرأ البيان ، وقادة الادب العربي ، فمن كذب سخيف ، الى
تفاهة معنى واستحالتها ، ومن فارغ قول وسفسافه الى تقييد
لأغراض الشعر ومذاهبه

ولو أن هؤلاء الشعراء عبروا عن شعورهم الصحيح
وتوفروا على الفن لذاة الفن ، لربحت منهم لغة الضاد رجلاً جزيلاً
ولرحبوا من عافقها واطرافها ، ووسعوا من أغراضها وأوضاعها
ولاكنها جناية تشجيع من سلف من الامراء ، وعاقبة
تقريبهم الشعر من المادة ، وإبعادهم له بذلك عن أن يكون
ترجمانا للعواطف ، وتعبيراً عن مشاعر النفس ونبضات القلوب
ووصفا للكون في روائعه ، والوجود في أنبل والطف مشاهد

هذا ويوجد الآن في حاضر الشرق العربي كثير من
النابعين الأفذاذ كرسوا جهودهم لخدمة الادب العربي ، وتفوقه
عاليا في مختلف الميادين ، فان قدر لآخواننا ادباء المغرب الاقصى
أن يشاركوا إخوانهم الشرقيين في هذه النزعة الصالحة الموفقة
فقد برهنوا على جدارتهم سلفا ، وما يوم العرش — دام صاحبه —
يلعيد



اثر العقل في الجسم

من المشاهد أن أبناء الحرفة الواحدة ، والمتعاطين لمهنة خاصة ،
عندما يطول زمن عملهم فيها ويمتد وقت مزاولةهم لها ترتسم
على وجوههم سحنة واحدة ويطبعا طابع واحد فلامحهم إذ ذاك
متشاكلة وصحايف وجوههم متشابهة حتى لا تكاد تفرق
بينهم في شيء

فلكل من المحامين والاطباء ، والادباء وغيرهم ، ملامح خاصة
وهيئة واحدة لا تختلف

ومن المشاهد أيضاً أن الانسان اذا خجل واشتد به الخفر
والحياء سرعان ما تتورد وجنتاه ويحتقن خداه بالدم ، واذا خاف
امتقع وجهه وهرب الدم من ظاهر جسده وبشرة جسمه وقد
يشتد به الخوف أحياناً فتضطرب ذاته وتتسع فيه الاوعية
الدموية ويحف الريق

فالانفعالات النفسية السارة تزيد أعضاء الجسم خفة وسرعة
في تادية أعمالها الطبيعية ووظائفها الموكولة اليها ، وهي بعكس
الانفعالات المحزنة فهذه تمنع أجهزة الجسم من تادية وظائفها

المنوطة بها على الوجه الأكمل ، وتجعلها بطيئة الحركة غير
قائمة بأموريتها الخاصة

نستنتج من هذا أن الجسم تابع للعقل عامل بإرادته منصب
في القالب الذي يهواه حتى ولو اختل توازن العقل اختل معه
نظام الجسم كله

ومما يشع ضوءاً على هذه النظرية ويزيدها جلاء ووضوحاً
ما نراه في الزوجين حينما تطول عشرتهما ، ويمتد الى عدة سنين
اجتماعهما من انطباع سحنتهما بطابع واحد وعدم اختلاف
مظهرهما في شيء ، حتى لتحسبهما أخوين يشتركان في الدم ،
وتجمعهما ارومة واحدة والواقع أنهما قبل الزواج غريبان لا تصلح
قاربة ولا تربط بينهما رحم ما

وهكذا كل امة اشترك أفرادها في دين أو أدب أو لغة
تجد اتجاهها واحداً وتفكيرها واحداً وسيمتها واحدة لا تختلف
وتعليل هذا هو أن الناس إذا اشتركوا في شيء حرفة
أو صناعة أو لغة أو أدب أو غير ذلك ينساق تفكيرهم مساقاً
واحداً ، وتجه أذهانهم لشيء بخصوصه ، فالعقل إذ ذاك مطبوع
بطابع واحد وله لون خاص ، وهو لما له من السيطرة على الجسم
وقوة النفوذ فيه يترك أثر تلك الصبغة على الوجه ، ويرسمها
بجلاء ووضوح في تقاسيمه وتقاطيعه

وهذا سر ما نرى من دلالة الخلقة على العقل ، فالشعراء
دائماً وفي كل عصر يتغنون ببهاء الطلعة ، ورفاهية الحسن والجمال
معبرين بذلك عن السمو العقلي والتقدم الذهني في ممدوحيههم
وابطال قصيدهم الممتاز ، يقول بلبل العراق الشادي محمد المهدي
البصير من قصيدة له عنوانها الجمال والدلال

لـك يا قاتلي لحاظ غزال	بعثت في نزعة مضرية
لم تحرك عواطف الحب إلا	هيجتني فحركت لي روية
أسكرتني شمائل لك رقت	هي ولله خمرة بابلية
آه كم قد سحرتني بحديث	صورت فيه روحك الأدبية
فتبسم مع الحديث بتغر	أشبهته الفاظك اللؤلؤية
أقرأتني بك الطبيعة شعراً	رسمته أقلامها المعنوية
من جمال إلى دلال بغنج	في حياء بعفة مريعية

ويقول بعضهم في مدح الرسول عليه السلام

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ياتيك بالخبر

ذكر أبو العباس سيدي أحمد بن محمد ابن الحاج في تاريخه
ان الامام أبا المحاسن الشيخ عبد القادر الفاسي كان كثيراً
ما يتمثل في السلطان الأعظم مولانا إسماعيل بهاذ البيت
تعرف في عينيه نجابة كانه بالذكاء مكتحل

مثل ما عرف في مولانا المنصور بالله سيدي محمد بن

مولانا يوسف خلد الله ملكه وزاده مجداً ونفراً
فالثقافة والنزعة والمذهب كل منها يبرز من أعماق الذهن
ويطفوا على سطح الوجه وتقاسيم الحيا
فالجسم أو بالأحرى الوجه من الانسان صورة مصغرة لما
يحتلج في ذهنه من الاراء وما يتعاقب عليه من أفكار واعتقادات
فهو كالمرآة يتمثل على مسرحه ما يضمه العقل ويظهر فيه جلياً واضحاً
ولرب خافية يكتمها الفتى والوجه منه بسرها يتكلم
كل يشير الى السريرة وجهه فكأنه بضميره متلثم
فاختلاف الامم ناشيء عن الاختلاف في النزعة والثقافة
وعدم وحدة الراي أكثر مما هو ناشيء عن الاوساط الطبيعية
التي يعيش فيها الانسان ويمد نفسه كل حين بمختلف أمدادها
ويمكننا أن نتوسع في هذه الظاهرة النفسية فنقول أن
الوجه في الإنسان لا تمكث سحنته على حالة واحدة بل تتطور
بتطور النزعة وارتقاء أساليب الثقافة والتعليم أو انحطاطها فعرب
اليوم في تقاطيع وجوههم وسيماهم المميزة لهم ليسوا هم عرب
المصدر الاول وهؤلاء ليسوا عرب ما قبل البعثة وهكذا
فالناس تختلف في صورها كما تختلف في اعتقاداتها ونزعاتها
وآدابها ثم يتطور فيهم الشكل بتطور ذلك كله
ومع هذا فلسنا نجعل أثر الوسط الطبيعي في جسم الأمة

وبالاحرى فى تقاطيع وجهها ، وتقاسيم سمعتها ، فالجو المغربى
— مثلاً — يجعل البشرة بيضاء لبرودة الطقس وعدم الاحتياج
الى صبغة تدفع الحر وتصد اللهب ، كما أنه يجعل الانف ضيقاً
ليمنع الهواء من مفاجاة الرئة بقدر كبير يوديها ، ويجعلها غير
مستطبعة لتأدية وظائفها الطبيعية

أما الزنجى فطبيعة بلاده الحرارة واليبوسة ، ولذلك وهبه
الله لوناً السود يجابه به ألم الحر ولفحات الهجير ، وانفاً أفطس
ليتمكن من جلب الهواء الكافى لرئته ، نعم هو إذا نشأ فى
وسط بارد وطبيعة لينة وتثقف بثقافة ذلك الوسط فـكـرع
من منله فى كل أصناف المعرفة لا يلبث أن تتبدل خلقة
ويطبع بطابع ذلك الوسط الذى عاش فيه

والخلاصة أن العقل متبوع والجسم تابع له ، ولذلك يقولون
القوة أصل المادة فالوظيفة أصل العضو لا العضو أصل الوظيفة ،
فنحن نسمع لأن لنا وظيفة هي السمع لا لوجود حاسة السمع
فى ذاتنا ، ونحن نبصر لأن عندنا وظيفة النظر لا لوجود العينين
فىنا وهكذا

فالقوة سابقة على المادة عاملة فى الحياة بواسطة الأعضاء
فالأعضاء منفذة ، والعقل آمر وحاكم ، والكل بقدره الله

العبقريّة والنبوغ وأثر الوراثيّة فيهما

يرى كثير من الناس أن العبقريّة والنبوغ هما الظهور بمظهر التبريز علي الأقران ، والبلوغ لنهاية الكمال وأوج العظمة والفخار ، فالشخص لا يكون عبقرياً في نظر الجمهور حتى تتوفر فيه جميع صفات التفوق ، ويستكمل كل دواعي السيادة العليا والمجد الأثيل

وهذا صحيح من جهة فالعبقريّة والنبوغ هما الظهور بمظهر التبريز حقاً وهما عنوان العظمة وشارة الخلود حقاً ، ولكن ليس العبقري والنابعة من يستجمع كل صفات السودد ويكون كاملاً في كل نواحي الحياة ومحصلاً على الدرجة القصوى في جميع مجالى الرقي ومرايى النبل واشرف ، إذ لو كان ذلك كذلك لما رأينا واحداً من هذه الكتل البشرية يمكننا الحكم عليه حكماً صحيحاً بكونه عبقرياً ونابعة فما العبقريّة والنبوغ من مدلولها الا مزاج فطرى في بعض الناس يعيل بصاحبه الى المبالغة والاستقصاء ويجعله غير قانع ولا مكثف بالوقوف عند ما دون الغاية التي يقصد والنهاية التي يتربقب الوصول اليها فهو لا تسكن أعصابه ويهدأ باله حتى يدرك الغاية فيما يريد أو يهلك دونها

وعلى هذا فالتنبي عبقرى لان مزاجه مزاج استقصاء
ومبالغة ، لا يدع لفظاً فصيحاً أو كلمة فخمة إلا وادخلها فى
شعره وحلى بها جيد قصائده وقرر أبياته الخالدة ، الامر الذى
انتهى اليه به الابداع الشعرى فكان آيته الكبرى وسيكونها ما
دامت لغة الضاد والشعر الحى من معجزاتها

وما قلت من شعر تكاد بيوته إذا كتبت يديض من نورها الخبر
كان المعانى فى فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلأثقك الزهر
ونابليون عبقرى لامعانه فى الفتوح واستيصاله لغزو كل
البلاد التى حدثته نفسه بالاستيلاء عليها واخضاعها لقوة سيفه
وبعيد أطماعه السياسية حتى قال فيه الاستاذ محمد قاسم فى كتابه
تاريخ القرن التاسع عشر إنه كشلة من الصخر الصلد ارسأت
الى العالم فلا تخضع لشيء من نواميس الطبيعة . والمولى إسماعيل
عبقرى لموالاته العمران وكثرة شغفه بالأبنية الضخمة واستيصاله
لتشييد القصور الشاهقة حتى أنه كثيراً ما كان يردد قول القائل
هم الملوك إذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبالسن البنيان

إن البناء اذا تعاظم شأنه * أضخى يدل على عظيم الشأن
وناهيك بقصبة مكناسة الزيتون المشتمة على عشرين باباً
كلها ذات أبراج عظيمة ، فيها من ضخامة البناء ما يقضى بالعجب
ويجعل العقل أمامه مندهشاً كما اشتملت على حدائق وبساتين

في داخل الكل بركة واسعة تسير فيها الفلك والزراويق سقى الله تلك الأيام قال صاحب البستان ولم تزل تلك الابنية على طول الدهر قائمة كالجبال لم تأثر فيها عواصف الرياح ، ولا كثرة الأمطار والثلوج ولا آفات الزلازل التي تخرب المباني العظام والهيكل الجسام . وهي كذلك الى الآن وقد مضى عليها من عهد الكتاب نحو من مائة وسبعين سنة . فزاج المتنبي والمولى إسماعيل واحد في طبيعة الميل الى الاستقصاء والعمل على الوصول الى مرماه البعيد ، وان كان متعدداً في النهاية المقصودة والغاية المرجوة ، تلك التي تختلف باختلاف العوامل التي تكون مزاج العبقرى ، والأشياء التي تتوفر على إيجاده وتنشئته

ويدلنا على هذه النظرية بعد اعترافنا بأن العبقرية وراثية — وسندل عليه — ما نقرأه وكثيراً في تاريخ جملة من الرجال العبقرى انهم ورثوا عن آبائهم مزاج العبقرية فقط أي حب الاستقصاء لا في شيء بعينه كالفرزدق الشاعر الشهير فانه ينتمى الى صمصمة التميمي وهو صاحب جليل مشهور باحياء المؤودة وكان يبالغ في ذلك قيل انه أحيى الف مؤودة وحمل على الف فرس وبه يفتخر الفرزدق في قوله

وجدى الذى منع الوئيدات * فاحى الوئيد ولم يؤد

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء صحيفة 183 وكان جد

الفرزدق صمصمة التميمي عظيم القدر في الجاهلية وما زال يشتري المؤدات حتى جاء الله بالاسلام ، فخذ الفرزدق كان إذا يبالغ ويتقصى في فك المؤدات فجاء حفيده الفرزدق وورث عنه هذا المزاج وهذا الاستقصاء ولكن لا في فك المؤدات بل في غريب اللغة يجمعه ، ووحشيها يدبجه في شعره ويراه حلية للغرر قصائده وعرائس نظمة حتى قيل لولاه اضاع ثلثا لغة العرب

وهذا الملهب ابن أبي صفرة قال القاضي ابن خلكان في ترجمته انه كان من اشجع الناس وأشدهم فروسية حتى انه منع الخوارج من دخول البصرة . وقد استقصى أبوا العباس المبرد في كتابه الكامل جميع الحروب التي حضرها في قتال الخوارج قال وفي كلها أبلى بلاء حسناً أبان فيه عن نجدة وشهامة وصرامة وأظهر بطولة نادرة وشجاعة عمياء وفيه يقول زياد ابن أبي سليمان الاعجمي

إن المهلب لن يزال لهافتي يجري قوادم كل حرب لاقح
بالمغريات لواحقاً أطالها تجتاب سهل سبابس وصاحص
متلفاً تهفوا الكتياب حوله لمح المنون من النصيح الراسح
قال أبو علي القالي في كتابه ذيل الامالي لما ذكر القصيدة

وقد نسبها بعضهم الى الصلتان العبدى والصحيح أنها لزياد بن سليمان ، والخلاصة ان الملهب كان بطلاً مغواراً ، صنديداً جباراً ، بلغ فى شجاعته الغاية القصوى واشرف على النهاية ، وهو فى ذلك وارث لآبائه اذ منهم مزيقاء ابن عامر ماء السماء قال صاحب الوفيات وانما لقب بذلك لكثرة جوده وعظم نفعه فشبه بالغيث . فيها نحن نرى ان اباء الملهب كانوا يبالغون فى الكرم ويريدون بحسب المزاج الذى ركب فيهم الاستقصاء فيه وقد ورث الملهب هذا المزاج وهذا الحب للاستقصاء ، ولكن لا فى الكرم بل فى الشجاعة والبطولة . فالعبقريّة وراثيّة ولو كانت غير مزاج الاستقصاء فقط لورث العبقري عن آبائه العبقرين هذا المزاج مع الاتجاه الذى كانوا يتجهون اليه من كرم وشجاعة أو غير ذلك

فالنتيجة أن العبقريّة ليست الا مزاجاً طبيعياً وراثياً يعيل بصاحبه الى المبالغة والاستقصاء فى الشئ الذى يتجه اليه اما كون العبقريّة وراثيّة فهذا ما يدلنا عليه التاريخ البشرى وترشدنا اليه نواميس الحياة جيلاً بعد جيل فكل عبقري يحدث عنه التاريخ أو نراه باعيننا نحن اذا بحثنا عن أرومته نجدها أرومة شريفة طيبة الأصل عريقة فى السؤدد والمجد قل زهير ابن أبى سلمى

وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل
وقال دريد ابن الصمة

وهل أنا الا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية ارشد
ومن أمثال الفرس السائرة محال أن تقتطف من شجر
الصفصاف ثمرأ شهياً والقرآن نفسه قد أيد نظرية الوراثة
هذه وقال بموجبها في قصة مريم عليها السلام فأتت قومها
تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً يا خت هارون ما كان
أبوك امراً سوء وما كانت امك بغياً يريد ما كان أحد من
أبويك فاسقاً فينتقل ذلك اليك عن طريق الوراثة فكيف
جئت بهذا الولد ولست متزوجة فإشارت اليه الخ القصة وقال
النبي صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم فان العرق دساس
فالعبرى اذاً لا بد من أن يكون من نسل عبقرى آخر وان
كانت نواميس الكون وعادة الله في خلقه بحسب ما نشاهده
منها تدل على أن العبرى قليل النسل وكثيراً ما يصاب
بالعقم ولهذا يقولون ان الخى تقل قدرته على التناسل بنسبة
ارتفاعه في سلم النشوء والارتقاء أى أن الفرد يقل إنتاجه
التناسلى بقدر عظم جسمه أو عظم فكره فاذا كان جسمه
ضخماً وجثته عظيمة في راي العين أو كان فكره حاداً وعقله
جباراً قد بلغ به حد العبقرية والنبوغ فعند ذلك يقل نسله

أويصاب بالمعقم بثاتا ولهذا يشير الشاعر العربي بقوله
صغار الطير أكثرها فراخا * وام الصقر مقلات نزور
ويعمل ذلك علماء الطبيعة فيقولون ان ما تصرفه الطبيعة
على الفرد سواء في تكوين عقله أو جسمه تطرحه مما تصرفه
على نسله ولكن قانون التوحيد من معتقدا يدفعه وربك
يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة والله أمير الشعراء
في قصيدته التي عنوانها الله تعالى
الوهم يبعد في الظنون ويقرب والعقل فيك مسافر متغرب
والفكر يهرب حيث أنت المهرب والنفس غايتها اليك تقرب
وقصارها في عفوك استذراء



طبيعة الترف في الحياة المادية والادبية

لسنا نقرأ تاريخ دولة من الدول أو ندرس حياة أمة من الأمم إلا ونجد الحجب المتكررة على أن الترف من أوضح الآثار في انحطاطها وتأخرها وابرز العوامل في سقوط أخلاق ابنائها وتضعف مركزها المادي والادبي ولو كان ساميا . ولكن ما هو الترف ؟ عرفه اللغويون بالنعمة ورغد العيش ويمكننا نحن تعريفه بعبارة أوضح وهي انه استعمال أشياء غالية الثمن وليست من الضروريات لمستعملها بمعنى أن هذا المستعمل اذا أراد ان يتركها امكنه ذلك في حين أن غيره ممن هو اكثر منه مالا واوسع نعمة لا بد له منها وهي من لوازمه الخاصة

فعاملنا المغربي اذا اكل اللحم في كل يوم ثلاث مرات وركب السيارة الخصوصية لنفسه واشترى الفواكه الغالية عد من المترفين وهذا بخلاف العامل الاوربي فانه يرى الحصول على هذه الأشياء ضرورة لا يعد من الترف في شيء . فالحكم على الفرد أو الأمة بالتurf لا يكون الا بعد النظر في العوامل التي تحيط بالمحكوم عليه والبيآت التي تكتنفه فان كانت قابلة للتوسع في النعمة والتمتع برغد العيش وهنائه كان الترف

مفيداً بل ضرورياً لرق الأمة واستكمال نضوجها الفكري والادبي
وكان من اقصى العوامل في تقدم فنونها ونجاح مخترعاتها
ومنتوجاتها والفن كما يقولون ضرب من الترف فهو الاصل
في كل الصناعات والفنون الجميلة والمبتكرات بحيث ان هذه
لا يمكنها ان تتقدم وتبلغ نضوجها التام الا بواسطته فالمخترع
مهما لم يجد اقبالا على اقتناء مخترعه ذهبت حماسته ادراج الرياح
وتأخر عن المضي في عمله وكف غيره من الناس عن
تقليده فالغني حيث يساق باي عامل لشراء الشيء الذي غلا ثمنه
لا ننكر عليه ما دامت الأمة وتستجني ورائه نفعاً في مستقبلها
وهذا التاريخ يبرر لنا هذه النظرية ويجعل الحجج عليها متكررة
ومتوالية فالدولة العباسية لولا اخذها باسباب الترف والنعيم
واللذة ورفاهية العيش ولولا انها كانت تنفق الاموال الطائلة
بغير حساب على الفقهاء والادباء والكتّاب والفنانين والشعراء
لولا ذلك كله ارايناها تنجب للعالم العربي كثيراً من العلماء
الاعلام والقادة الافئدة اولئك الذين انهضوا من لغة القرآن
وآداب الاسلام وادخلوا على الثقافة العربية فنونا من المعاني
والالفاظ لم تالفها فمن اخيلة بديعة الى معاني دقيقة الى افكار
جديدة ومن وضع اسطلاحات للعلوم والاداب والصناعات
والمخترعات الى توسع في اقتناء الالفاظ الرشيقة المألوفة واكثار

من التائق في صوغ العبارات الموثوقة الربط البديعة الانسجام
نعم ان الادب العربي والمعارف الاسلامية ما كانت لتبلغ
حد النضوج وحد النهاية والكمال في عصر بني العباس لولا
ذلك الترف المملوكي الذي دعى خلفاء بني العباس الى التبارى
في السخاء والعطاء . حدثنا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين
مجلد 1 صحيفة 139 نقلا عن طيفور قال قال يحيى ابن الحسن
انى بالركة بين يدي طاهر ابن الحسين على بركة اذ دعوت
بغلام له فكلمته بالفارسية فشاركنا العتابي وكان حاضرا
في كلامنا فتكلم معي بالفارسية فقلت ابا عمرو مالك وهذه
الركانة فقال لى : قدمت بلدتكم هذه ثلاث مرات وكتبت
كتب العجم التي في الخزانة عمرو ثم قدمت الى نيسابور
فذكرت كتابا لم اقض حاجتى منه وقد كنت آخذ عليه مالا
كثيراً من امير المومنين لو فعلت فرجعت الى مرو فاقت
اشهرأ حتى ترجمته فقلت ابا عمرو ولم كتبت كتب العجم
فقال لى وهل المعانى الا في كتب العجم والبلاغة اللغة لنا
والمعانى لهم ونحن نأخذ المال بين هذا وذاك . فهذا العتابي
يحدثنا انه ما تشوقت نفسه لترجمة الكتاب الذى نسى الا
ليأخذ عليه لو فعل جائزة من امير المومنين ثم اكد ذلك اخيرا
بقوله ونحن نأخذ المال بين هذا وذاك والحق ان العتابي الاديب

كان صريحاً في قوله هذا كما عهدناه صريحاً وواضحاً في كل شيء
فانظر الى قوله

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تام — له الناظر
لمثله لك حتى تراه * لتعلم انى امرؤ شاكر
الست تراه غير مكثف بابانة اللفاظ عما في الضمير
وكشفها لمكنونات النفس وخجلات الفؤاد بل هو يريد تجسيم
المعاني وتشخيص المعقولات حتى يزيدنا ادراكا لما يقول وفهما
لما يصدر عنه ولا اكثم زملاءى السامعين انى مهما ذكرت
الايات التالية للعتابى الا واتمنى سماعها كغناء من شخص رخم
الصوت جمي — ل النبرات

ما جف للعينين ب — دك ياقير العين مجرى
ان الصبابة لم تدع منه سوى عظم مبرى
ومدامع عبرى على كيد عليك الدهر حرى
ولا غرابة فالعتابى تربى فى احضان النعيم ولقحه الترف
ورغد العيش فقال هذا الشعر الخالد الذى هو قطعة من الفن
وشارة من اشارات العبقرية والنبوغ ونحن ان قدرنا العتابى فيه
فلسنا نقدر الا الرشيد الذى ادهشه يوماً بعطائه وكرر له الجوائز
السنية والهدايا الرفيعة الامر الذى نعهده ترفاً ويراه تاريخ الادب
والثقافة نوعاً من التشجيع ربحت منه لغة العرب ما هي مدينة

به حتى الأبد لها ولاء الامراء

ولله شاعرنا المغربي العظيم ابن الونان الحميري إذ يقول في
قصيدته الشمقمقية مخاطباً ممدوحه السلطان الأعظم والامام
الأكرم أبا عبد الله سيدي محمد بن السلطان مولانا عبد الله

لولاك كنت للقريض تاركا * لعدم الباعث والمشوق

واي باعث للشعراء غير ترف الملوك ونيل الجوائز
والصلاة وبدل الاموال الطائلة لهم في كل المناسبات الأمر
الذي سرى عليه ملوك هذه الدولة العلوية الماجدة وخصوصاً
جلالة سلطاننا الحالى كريم الشيم سيدي محمد بن مولانا يوسف
أبد الله نصره وزاده مجداً ونخراً . ثم وما قلناه من أن انترف
يعد مشجعاً للاداب والعلوم والمختزعات والفنون وان الامراء
كانت تعرف ذلك وتعمل عليه في مختلف النصور هو الذى
ينبغي أن يفسر به ما نقله المؤرخون وغيرهم عن بعض خلفاء
بني العباس كالمصور والرشيد والمأمون سقى الله عهدهم من أخبار
مشوهة عن حياتهم الخاصة وبيئاتهم المنزلية هي على رغم مبالغة
الروايات فيها لا تتفق مع مبدء الاسلام وقانونه الاعلا ومع ما
كانوا يشغلون من مركز الخلافة وعرش الامارة والسايطان
زيادة على أن هذه الاخبار وضع الكثير منها لاغراض سياسية

واسباب خاصة وكانت نتيجة طبيعية لذلك الخلاف الذي كان قائماً بين شعوب الاسلام عموماً وبين شيعة الامويين مع شيعة العباسيين خصوصاً . مع أن بعضهم إذ ذاك كان يظن أن وضع قصص يشتغل بها الناس وتكون لاهية لهم عن الخوض في سياسة الامراء والكلام فيما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم هو شيء يصلح به الدين ويستقيم الملك والسلطان ولا عليه بعد ذلك ان هو شوه التاريخ ووضع الأخبار طبق هواه وكما يشتهي ويدلنا على أن هذه الفكرة كانت شائعة في الوسط العباسي لاقصى حد نسبة أكثر ما ألف من القصص سواء كان مجموعاً على حدة أو مفرداً في الكتب الى عصر بني العباس أو ما يقرب منه كفتوح الشام وفتوح اليمن وفتوح مصر وكتاب الف ليلة وليلة وكتاب قصة عنتره العباسي وسيرة الامير حمزة البهلواني وان كان هناك من يقول ان كتاب الف ليلة وليلة ترجم عن الفارسية ولكن ما فيه من الأخبار يكذبه على أننا لا ننزه خلفاء بني العباس عن كل ما نسب اليهم في هذه الأخبار وانما نعتقد أن أكثرها مبالغ فيه للأسباب المذكورة أو غيرها مع تبوت الأصل والاعتراف بالمجموع وهذا المجموع هو وان دل على شيء فانما يدل على ترف الملوك وتجاوزهم حد السخاء الى حد التبذير ولكن هذا في نظرنا هو ما جعلهم

خالدین علی الأجيال وبوأهم منصة الشرف الابدی علی السنة
الفنانین والأدباء والعبقريين والنبغاء . حدثنا الاغانی عن
الاصمعي قال دخلت أنا واسحاق الموصلي يوما علی الرشید
فرايناه لقيس النفس فانشده اسحاق يقول

وأمره بالبخل قلت لها اقصري

فذلك شيء ما اليه سبيل

أرى الناس خلان الكرام ولا أرى

بخيلا له حتى الممات خليل

وانى رأيت البخل يزرى باهله

فاكرمت نفسى أن يقال بخيل

ومن خير حالات الفتى لو علمته

إذا نال خيراً أن يكون ينيل

فعالى فعال الاكثرين تجملا

ومالى كما قد تعلمين قليل

وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى

ورأى أمير المؤمنين جميعاً

قال فقال الرشید لا تحف إن شاء الله ثم قال لله در أبيات

تأتينا بها ما أشد اصولها وأحسن فصولها وأقل فضولها ثم

أمر له بخمسين ألف درهم فقال له إسحاق وصفك والله يامير المؤمنين

لشعري أحسن منه فعلام آخذ الجائزة فضحك الرشيد وقال
اجعلوها لهذا القول مائة ألف درهم قال الأصمعي فعلت يومئذ
أن اسحاق أحذق بصيد الدراهم مني

وحدثنا الاغانى أيضا في الصحيفة العاشرة من الجزء الخامس
عن إسحاق الموصلي قال قال أبى خرجت مع الرشيد الى
الحيرة فساعة نزل بها دعا بالغداء فتغدى ثم قال فاغتنمت
قائلته فذهبت فركبت أدور في ظهر الحيرة فنظرت الى بستان
فقصدته فاذا على بابه شاب حسن الوجه فاستاذنته في الدخول
فأذن لي فدخلت فاذا جنة من الجنان في أحسن تربة وأغزرها
ماء فدخلت فقلت لمن هذا البستان فقال لبعض الاشاعنة
فقلت له أبيع قال نعم وهو على سوم فقلت كم بلغ فقال أربعة
عشر الف دينار قلت وما يسمى هذا الموضع قال شمارى فقلت
جنان شمارى ليس مثلك منظر لدى رمد أعيب عليه طبيب
ترابك كافور ونورك زهرة لها أرج عند الدويطيب
قال وحضرتني في غنائه صنعة حسنة فلما جلس الرشيد
وأمر بالغناء غنيته به أول ما غنيت فقال ويلك وأين شمارى
فأخبرته القصة فأمر لي بأربعة عشر الف دينار وغمزني يحيى
فقال خذ توقيعها الي وتشاغل الرشيد عنى فأعدت الصوت
فقال ويلكم أعطوا هذا دنائيره فوثبت وقلت ياسيدى وقع لي

بها إلى جعفر ابن يحيى فقال افعل ووقع لى بها اليه فلما حصل
التوقيع عند جعفر أعطانى المال وخمسة آلاف دينار من عنده
فلما حصل المال عندى كان أحب الى وأحسن من شمارى
السنا نرى الرشيد مترفا ومتجاوزاً للحد فى الذى فعل مع إبراهيم وابنه
إسحاق فى الحديثين السالفين ولكن لولا هذا الترف من الرشيد
أنراهما يضعان فن الموسيقى علماً جديداً ويبلغان فيه بعد حد النضوج
وحد النهاية والكمال حتى يمدحا بحضرة الأمير وفوق بساطه ويشيب
الأمير مادحها بخمسة آلاف دينار

ما لبراهيم فى العدا	م بهذا الشأن ثانياً
إنما عمر أبى إسـ	حاق زين للزمان
منه يحنى ثمر اللهـ	و وريحان الجنان
جنة الدنيا أبو إسـ	حاق فى كل مكان

وحتى رثى الشعراء الموصلى يوم موته بما يزيد على مائتين قصيده
حسبها ذكر ذلك الاغانى فى ترجمته منها

تولى الموصلى فقد تولت	بشاشات المزاهر والقيان
وأي بشاشة بقيت فتبقى	حياة الموصلى على الزمان
ستبكيه المزاهر والملاهي	وتسعدهن عاتقة الدنان

ومنها

ستبكيه اشراف الملوك اذا رأوا محل التصابي قد خلا منه جانبه

ويبيكه أهل الظرف طراً كما بكى عليه أمير المؤمنين وحاجبه
أثرى الموصلى يبلغ هذه المرتبة الرفيعة فتبكي لفقده الاوساط
الادبية والمجالس السلطانية و يترجم عن ذلك الشعراء الذين هم لسان
الامة وقتارتها الداوية فى كل الاوساط تلك التي تسجل بمهارتها
العليا أنغام سرورها والحن آلامها وأحزانها أترى ذلك كله يكون
لولا أن الموصلى بلغ حد النضوج فى فنه الجديد فرضي عنه جميع
الطبقات واكتسب عطف كل إنسان وتقديره وما كان الموصلى
فى نظرنا يصل لذلك لولا سخاء الأمراء وترف الملوك هذا
السخاء الذي يجعل آداب كل أمة يوجد فيها طافحاً يوحى العبقريّة
والنبوغ وموشى برمز التفوق وشارات الخلود

ثم وكل هذا الذي وصفناه هو النتيجة الحسنة للترف
وان كنا نعتقد كما قلنا فى صدر المقال أن له ضرراً بالغاً ينتهي
بالامة الى الانحطاط والتأخر هذا الضرر الذى كنا نجعل كيفية
حدوثه والطريق التي ينتشر بها فى الامة المترفة ولكن علم الحياة
أي البيولوجية قد زودنا الآن بتفسير دقيق بين لنا تعليل هذه
الظاهرة الاجتماعية بوضوح فهو يفهمنا أن الارض الخصبية
الطبية التربة إذا زرعها ببنر حسن لا بد من أن تاتى تلك
الارض فى أعوامها الزراعية الاولى بما هو أحسن من ذلك البذر
واغلامه قيمة ثم اذا واليت زرع ذلك البذر نفسه فى تلك الارض

أعواماً أخرى لا بد من أن ينحط وتتأخر قيمته وهذا بخلاف ما
إذا زرعت ذلك في أرض ضعيفة قبيحة التربة فانه يبقى على حالته
لا يكاد يتحسن ولا يكاد ينحط الا اذا نقلته الى الارض الخصبة فبزر
الارض الحسنة يزكو أولاً ويربو ثم اذا واليت زرعه في نفس
تلك الارض يقبح وينحط وهذا بخلاف الأرض الضعيفة فان
بزرها يبقى على حالته واذا نقلته الى الأرض الخصبة يزكو
ويحسن وما السبب في ذلك الا أن الأرض الخصبة تنبت ضعيف
البرز وقويه فاذا واليت جعله فيها صار كله ضعيفاً وهذا بخلاف
الأرض المنحطة فانها لا تنبت الا القوي ولا تبقي على الضعيف
فاذا نقلت بزرها الى الأرض الخصبة كنت وقد نقلت القوى
فقط فاني زكياً رايياً

وكذلك الحال في الامم فان الترف اذا انتشر وعم كل افراد
الامة حسن العيش وكثر النعيم وتمتع الاغنياء والفقراء واخذ
كل يبني القصور الشاهقة ويلبس الثياب الفاخرة ويبالغ في
النظافة والاستحمام واذا ذاك تقل الوفيات ويكثر ضعفاء الجسم
وضعفاء العقول

وهذا بخلاف ما اذا كانت الامة بدوية لا تعرف الترف
والنعيم والرغد وهناء العيش فانك لا تجد فيه الا قويا صلباً
سالم الصحة من كل عيب . ذلك أن الضعفاء لا مجال عندهم

للعيش فهم لذلك يموتون بخلاف ضعفاء الامة المترفة فان
المجال عندهم واسع والحضارة تحميهم . ومعنى هذا أن تنازع
البقاء يشتد بين أفراد الامة الغير المترفة اذ ليس لديها من
وسائل الحضارة والمدنية ما يبقى على الضعفاء فيها فهي كالبلد
الغير الخصبه التي لا تترك الا القوي ولا تنبت من البذر الا
الحسن وهذا بعكس الامة المتحضرة المترفة فانها تبقى على
القوى والضعيف ولكل فيها مجال فهي بمنزلة الارض الخصبه
التي تنبت لكثرة عناصرها الغذائية الجيد من البذور والردىء
فيؤل ذلك الى التأخر والإحطاط والكل بيد الله

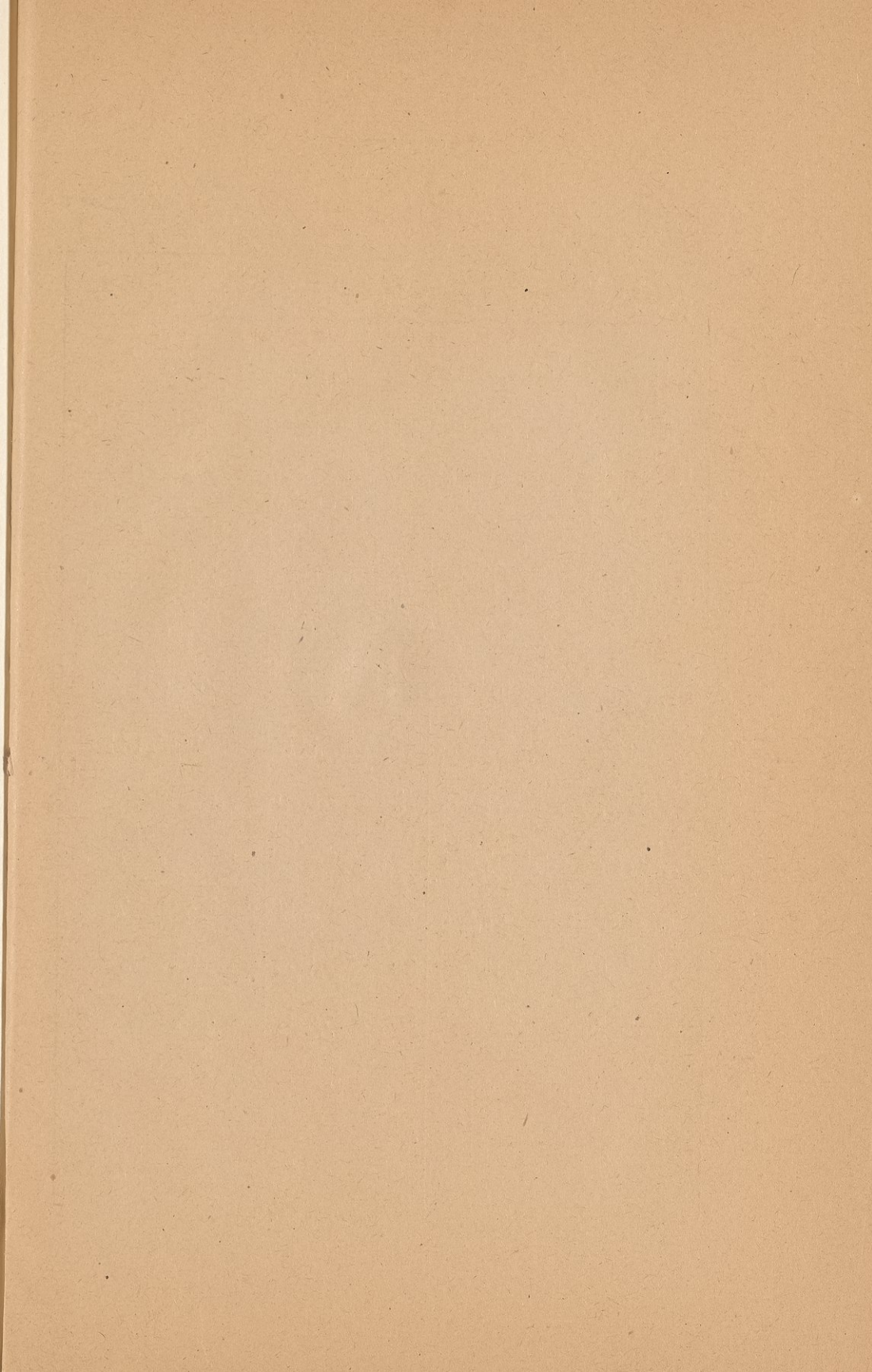


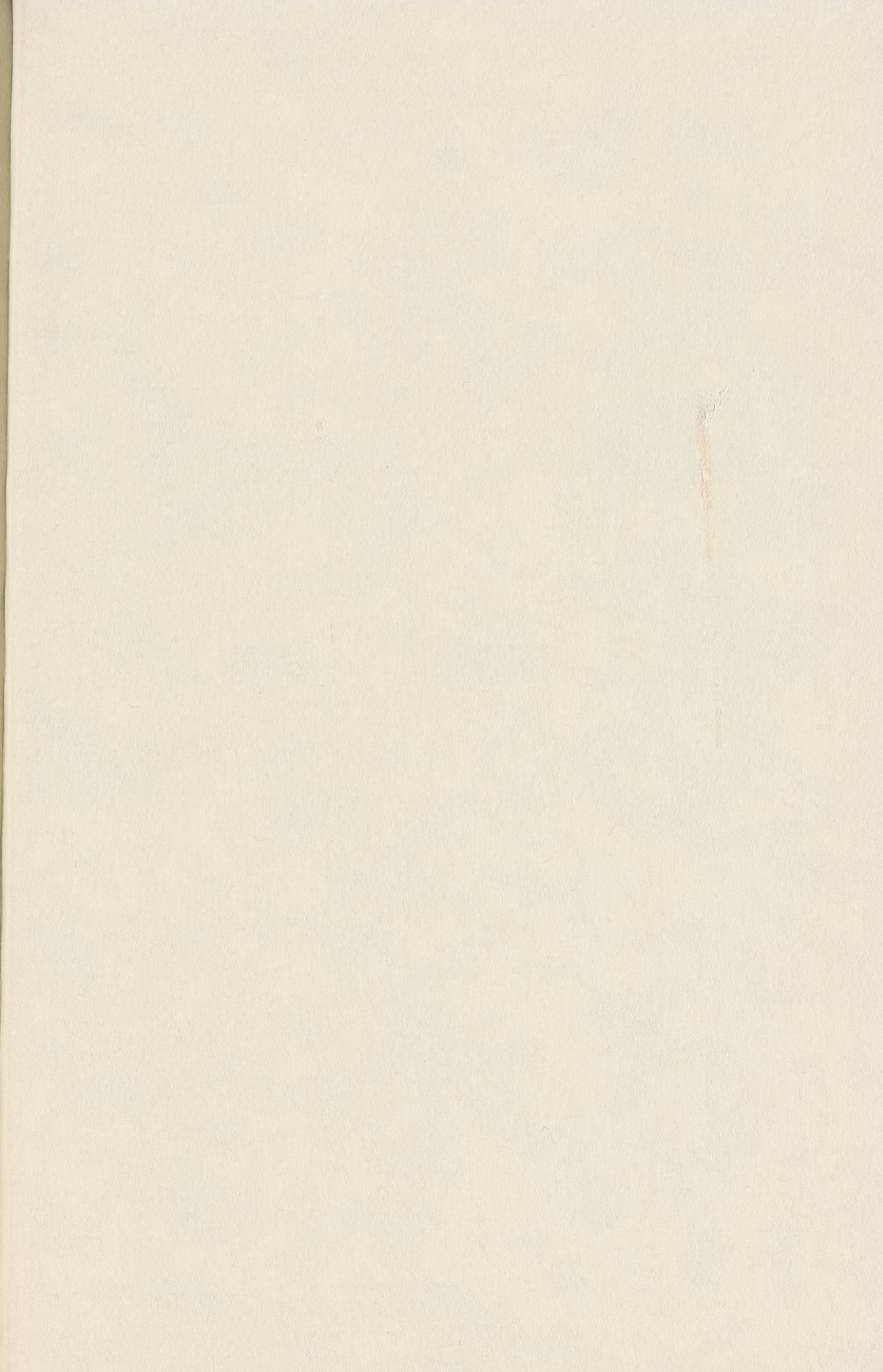
عمرة الرقابة 145

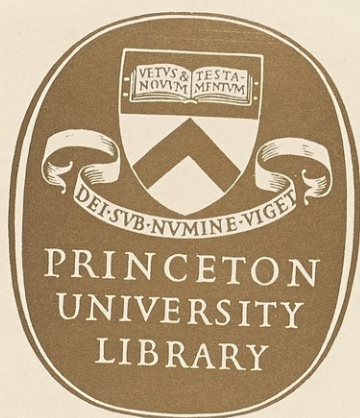
تنبیه

وقعت بعض اغلاط ينبغي اصلاحها قبل درس الكتاب منعاً للالتباس

صحيفة	سطر	خطا	صواب	صحيفة	سطر	خطا	صواب
2	7	القارئ	القارئ	33	17	مهموما الا	مهموما الى
3	11	يتغدا	يتغدى	45	18	قرء	قرأ
6	10	فيقرء	فيقرأ	46	13	المراء	المرأة
9	12	تخطوا	تخطو	47	12	المثين	المتين
11	19	موتك	مؤتك	47	18	الريق	الرائق
16	4	استاصلهم	استأصلهم	58	2	فاهأؤلاء	فهؤلاء
16	15	ان تأثر	ان تؤثر	60	19	حادته طولا	حادته طويلا
19	14	ماخذ	مأخذ	61	13	ومأت	ومئات
19	18	اولائك	اولئك	75	3	ويطفوا	ويطفو
20	17	الاهوتين	اللاهوتين	79	1	والزراويق	والزواريق
23	7	لا ينم	لا يتم	79	3	لم تأثر	لم تؤثر
26	2	من الدعى	من ادعى	80	6	للغور	لغور
32	12	ولا كن	ولكن	89	17	تبوت	ثبوت







Princeton University Library



32101 060155551

AP